

سيناريو الظلام

أمير الكوابيس

وائل رداد



فهرسة
مكتبة الكويت الوطنية أثناء النشر

813 قاسم ، وائل محمد صالح

سيناريو الظلام : أمير الكوابيس الجزء الأول وائل محمد صالح قاسم   ط1 .الكويت :

دار سما للنشر والتوزيع , 2013

--- ص , 19.5 سم .

ردمك : 978-99966-55-20-3

1. القصة العربية   - الكويت أ. العنوان

رقم الإيداع : 379 / 2013

تصميم الغلاف: صالح محمد

اخراج داخلى: محمد الزمزمي

نشر :

سما للنشرو التوزيع -- الكويت



المدير العام:

يوسف العبدالعيسى

www.Darsama-Kw.com

info@darsama-kw.com

Tel: +0096567076866

سيناريو الظلام: أمير الكوابيس

انفلت الحنش على الأرض, وطفق يسعى زاحفا بسرعة حتى اختبأ بين الأنقاض.. ركض (حمزة الأسد) إلى الصبي, فتلقفه, وأخذ يفتش بصورة محمومة في جسده هاتفا:

- هل عضك؟! أين عضك؟!

- لم يعضني..

هدأ الخال الجزع أخيرًا, لكن مخيلته لم تهدأ.. ترى كيف استأنس الصبي ذلك المخلوق الزاحف الأسود؟

بدا عليه الغضب فجأة, فصاح:

- هل جننت يا ولد؟ كيف تلهو بالحنش؟ ألا تعرف أن عضته لا منجاة منها؟!

بقي الصبي على صمته, فعاود الخال صياحه بغيظ:

- ما بالك لا ترد؟

- قد كلمني..

- من؟

- الحنش! همس في أذني بكلمات!

- هل جننت؟!

- أقسم بالله العظيم أن..

- لا تقسم.. وبم أخبرك يا فالح؟

تردد الصبي بالنطق, فعاجله الخال بضربة قاسية على قفاه صائحا:

- انطق!

قال الصبي وقد أجهش بالبكاء:

- قال.. قال بأنه يدعى (الحارث)!

حدق (حمزة) في وجه الصبي المنتحب مشدوها, ثم صوَّب نظراته الذاهلة إلى الأنقاض حيث تلاشى الزاحف الرهيب..

للمرة الأولى شعر بالخوف يسري في عروقه, خوف غريب مبهم غير قابل للتفسير, كما لو كان نذير شؤم من نوع ما..

وائل رداد

Opening

أمامه، داخل حوض الاستحمام ووراء الستائر الشفافة، جسم لإنسان يتحرك مرتكبا فعلا شنيعا لطخ إثره الستائر برشقات مروعة ذات صبغة قانية! لم تكن مجرد رشقات عشوائية، كان رشق الدم بارعا، فتمكنَ من قراءة الرسالة الطويلة المتشكلة على الستارة بوضوح:

ثم وقفت على رمال البحر .. فرأيت وحشاً خارجا من مياهه له

سبعة رؤوس وعشرة قرون.. وعلى قرونه عشرة تيجان.. وعلى رؤوسه دوِّن: «مُجدِّف»!

والوحش الذي رأيته كان كالنمر.. وقوائمه كقوائم الدب.. وفمه كفم الأسد.. وأعطاه التنين قدرته وعرشه وسلطاناً عظيماً.. فجعل الجميع صغارا وكبارا أغنياء وفقراء أحرارا وعبيدا يصنع سمه.. ولا يقدر أحد أن يشتري أو يبيع إلا من له السمة.. أو اسم الوحش!

فليحتسب عدد الوحوش.. فإنه عدد الإنسان.. 666 !

ثم نهض الشخص المخيف كأنما تنبه لوجود أحدهم داخل الحمام، وبيدٍ مشدودة الأوتار ومبتلة أزاح ببطء الستارة..

كان رجلا أقل ما يمكن وصف خلقته به بالمومياء! لون بشرته مدعوك بالأصفر والأخضر مع بقع رمادية قبيحة، ثمة تشوهات قاسية على جبينه

وخديه، لذا استعان بشعره الطويل لإخفاء قبحه المروع، وعلى شفتيه المسحوقتين آثار دم متجلط كما لو كان يتذوقه!
تصلب بصره على عيني ذلك الشبح، كانت عيناه نافذتين قاسيتين، لكنهما على قدر عجيب من السحر، كأنه يستخدم تنويما مغناطيسيا كحيلة!
ارتدى ملابس بالية ومعطفا زيتوني اللون، وعندما أخرج قدمه من البانيو تبدت ضخمة وثقيلة بفعل حذاء جيش متسخ بالوحل!
رفَّ جفنه متراجعا للوراء، فخرج وأطبق باب الحمام محاولا إقناع نفسه أنها مجرد..
سمع دندنة غامضة جعلته يقف مسمرًا بمكانه، كانت آتية من خارج الغرفة، فأدرك أن صاحب الشموع على باب الغرفة (9) قد عاد!
فكر بالخروج وإمساك الفاعل بالجرم المشهود، لكن الخوف والفضول تملكانه، كلاهما يسابق الآخر بين جدران نفسيته، فآثر التسلل والإطلال لرؤية ما يحدث..
قام بخلع حذاءيه، وعندما أطل برأسه لكي ينظر وبأقصى درجات البطء والحذر، تبين له شخص جالس على ركبتيه أمام الغرفة، وقد ثبت شمعة سوداء على الباب بدت كخنجر مغروز هناك!
كان الشخص الغامض عاكفا على رسم دائرة بطبشورة حمراء، مدندنا تلك الهمهمات الغامضة كتراتيل صلوات..
- «**أستطيع.. رؤيتك!**»
جمدت الدماء في عروقه، لكنه تظاهر برباطة الجأش، واقترب متسائلا:
- ماذا تصنع؟
نهض الشخص الغامض مدندنا ترهاته، تاركا صحنا أسفل الشمعة بعد رسمه دائرة حولها، وسار بخطوات كالمتهادي، فطارده بصوتٍ شبه مسموع:
- ارجع إلى هنا! نحن لا نرحب بالمشعوذين من أمثالك!

لكن صاحب الدندنات تجاهله داخلا إلى حجرته!
لم يتردد في إزالة آثار الخزعبلات التي خلفها ذلك المجنون، إلا أنه توقف فجأة، فقد تناهى لمسمعه صوت أنين مخيف تصاعد من داخل الحجرة!
عاد أدراجه بقلب يكاد ينخلع من شدة دقاته، فأوصد باب غرفته بالمفتاح بأنامل مرتعدة من فرط العصبية والخوف معا، واستعان بمقعد ثبته أسفل مقبض الباب بإحكام، ثم عاين النافذة متأكدا من إحكام إغلاقها..

- «**مرّ زمن طويل قبل آخر لقاء جمعنا ببعض!**»

جمدت الدماء في عروقه، وببطء رفع وجهه متأملا الشخص الواقف أمامه مباشرة!

- «ماذا تفعل هنا؟!»

- «**اشتقت إليك أيها المهندس المستقبلي!**»

نهض ببطء متمتما بحذر:

- كفَّ عن تدمير حياتي!

- حياتك مدمرة أصلا، كفَّ أنت عن المكابرة ودعني أدخل!

- لكنك بالداخل!

- دعني أدخل!

- اذهب للجحيم!!

قهقه الزائر الغامض مصفقا بقوة وهو يقول باستهزاء:

- كان أداءً مؤثرا حقيقة! حتى أنك كدت تقنعني!

تظاهر بإحكام إغلاق النافذة هامسا بعصبية:

- ماذا تقصد؟

تجهمت ملامح الزائر مجيبا:

- **أنسيت أم تناسيت؟**

- نسيت ماذا؟! ماذا تحاول أن تقول؟!

عصف الغضب بملامح الزائر الشنيعة، مجيبا وسبابته موجهة كسلاح

مصوَّب إلى دائرة الهدف:

- أحاول تذكيرك بجريمتك النكراء التي ارتكبتها لما كنا معا! تذكر أيها الجبان! تذكر!

صرخ واللعاب يتطاير من شدقيه كالمسعور:

- أتذكر ماذا؟ أنك انتحرت بإغراق نفسك؟! ألم تفعل بعد الذي اكتشفناه؟!

- وأنت وقفت كالمتفرج! أنت لست رجلا!

- وأنت انتحرت وتركتني أواجه كل هذا الجنون بمفردي!

بدت عيناه مظلمتين عندما نطق ببرودة:

- صارت مشكلتي معك إذاً! أنت لم تحرك ساكنا، بل وأضعت على نفسك درب الرجوع إليهم!

- أعلم أنهم من أرسلوك! لقد تجاوزتُ هذه النقطة منذ زمن!

- بالطبع هم أرسلوني.. لطالما كنتُ ال Handler الخاص بك! معالج أمورك ومن يتولى زمامها!

- لجعلي تحت السيطرة العقلية اللعينة التامة! لجعلي عبدا لك ولهم!

- بالضبط.. كل شخص وله Handler خاص به.. هذا جزء من اللعبة!

- قصدك المؤامرة!

- سمّها ما شئت!

الغرفة رقم (13) كانت من نصيبه لسوء طالعه إذاً.. لا، كل الغرف سواء! كل الأرقام سواء! لا شأن لسوء الطالع وأرقام النحس بالموضوع..

وهنا أنصت بتحفز، صوت ما يتردد بالممر، فسارع بالخروج من جديد..

أطل برأسه، فأبصر وهجا يتأجج كشعلة ضئيلة على باب ذات الغرفة اللعينة، فتقدم ببطء وحذر وقد اتسع بصره عن آخره..

(12).. (11).. (10)..

وعلى باب الغرفة رقم (9) وجد – كالعادة- شمعة سوداء مثبتة على الباب!

وحول الشمعة رسمت دائرة الطبشور الأحمر، وأسفلها على الأرض الصحن الأزلي، تتساقط فيه قطرات الشمع الذائبة كصنبور مياه مفتوح، وقد رسم حول الصحن كذلك دائرة بالطبشور الأحمر!

«ما هذه الشعوذة اللعينة بحق جهنم؟!» كذا فكر متأملا المشهد المثير للهواجس المقلقة، قبل عودته إلى غرفته تاركا الشمعة والصحن هذه المرة..

أسئلة كثيرة أقضت مضجعه في تلك الليلة، فظل على سهاده وأفكاره المؤرقة حتى ساعة متأخرة من الليل..

نام أخيرا، ربما الساعة أو اثنتين، قام بعدها على صوت جلبة آتية من خارج حجرته.. نهض متثاقلا ومتوجسا بآن واحد، ولما فتح الباب فوجئ بمنظر هز وجدانه هزا..

كان الشتاء مخيما على السكن بأكمله من الداخل! الثلوج تتساقط من السقف، وقد غطت كل ركن وزاوية من الممر والردهة وكل شيء!

سار ذاهلا غير مصدق، ومن بعيد أبصر شخصا يتلمس شمعة سوداء على باب الغرفة اللعينة ذاتها!

كان الشخص يتشح بعباءة سوداء، جالسا على ركبتيه وقد تدثر بالعباءة من رأسه وحتى أخمص قدميه، فبدا كمشعوذة تمارس طقوسا شيطانية مخيفة!

- «من أنتِ؟!»

ودنا أكثر، ثم توقف على قيد أنملة منها، كانت أنثى حقا، تهمهم نغمة كئيبة وأصابعها المعروقة الشاحبة تمسح بوله باب الغرفة المشؤومة..

- « ley Lines.. ley Lines.. ley Lines»!

كذا كانت تهمهم!

وحين مدَّ يده إليها فوجئ بها تقبض على رسغه، وكان آخر ما شاهده -قبل صرخة الهلع التي أطلقها- رقما عجيبا دمويا حفر بقساوة على امتداد ذراعها الأيمن القابضة عليه:

910111213

عندئذ استيقظ من ذلك الكابوس المفزع، ومساماته تضخ العرق خارج جلده ضخا، ملوثة ثيابه وفراشه..

وثب من على الفراش مزمعا إكمال ما بدأه، فنفض آثار الكوابيس عن رأسه، والتقط قطعة من الطبشور الأحمر متجها ناحية الجدار المزدان برسومات وإشارات وجمل ذات دلالات مبهمة.. أرقام ومعادلات، 6 دوائر تشير بأسهم إلى 6 ممالك غامضة ذات أبراج شاهقة عجيبة، أمراء يمتشقون سيوفا عددها 6 وأميرات يهفهفن بمراوح، وأطياف هائمة تحمل أسلحة بدائية، قوى غامضة تتحكم بالعواطف واتخاذ القرارات، شياطين وملائكة ينتشرون بيننا لدرجة تمكننا من رؤيتهم دون أن نعلم ماهيتهم! لساعات ظلَّ يعمل، ولما فرغ أخيرا من مهمته الشاقة تأمل ما قام به في كل ركن وزاوية..

لقد حوّل جدرانه إلى معرض جنوني للوحات والحكايات والمعادلات العجيبة! كان بارعا، فمارس شيئا مما كان الإنسان البدائي الأولي يصنعه على جدران كهفه! استخدم الأقلام والألوان والفحم، أما الطباشير الحمر فللإشارات والدوائر الأهم..

كان يعمل على هذا المنوال منذ مدة ليست بالهينة، فقهقه منتشيا بالخلاص، وبسخرية جامحة صاح واللعاب يغمر ذقنه:

- سأدع الجميع يعلم! التعساء! هكذا لن تضيع الحقيقة.. أبدا!

اضطرابات جامعية

الفصل الأول

في بداية العام الجامعي الجديد، دخل بهو الحرم حيث البلاط المصقول والشبيه برقعة شطرنج شاب حمل وجهه القمحي ناحل الوجنتين بسمة تفاؤل لكل من هبَّ ودب..

ارتدى قميصا سماوي اللون زر ياقته مفتوح، وقد طوَّق معصمه الأيسر بساعة رياضية عريضة الحجم، شاشة الأرقام كانت جهة راحة الكف كي لا يضطر إلى لوي معصمه كلما احتاج إلى معرفة الوقت..

قابل طالبا يقاتل بضراوة آلة المشروبات الغازية التي سرقت عملته المعدنية، فاقترب منه متسائلا ببشاشة:

- صباح الخير! أين مكتب القبول والتسجيل؟

- أنصحك ألا تفعل!

- ولِمَ يا زميل؟

- لستُ زميلك عليك اللعنة!

ورحل وقد نال منه النكد بقسوة، لكن هذا لم يثبط من عزائم الشاب، الذي سأل واستفسر حتى بلغ المكتب المنشود..

كان الطابور الواقف هناك يشابه قاطرة بدائية مفككة، أصوات جنونية تعلو كما لو كان الجميع يتكالب على قطعة لحم أو رغيف خبز من فرط المجاعة..

ووسط سوق عكاظ القائم، جلس الموظف المختص كي يعمل على جهاز حاسوب بطيء السرعة، وسيجارته تتلوى بين شفتيه الداكنتين كالدودة في شص صياد أسماك..

وقف الشاب في الطابور بصبر مدندنا، بصره طاف أرجاء المكان دونما كلل، اعتراه ابتهاج لما فكر أن هذا الصرح العظيم والمقدس هو الجامعة، الحياة الواعدة بكل جديد وثمين سواء أكان معرفة أم تجربة..
- «لو كنتُ الجالس على ذلك الحاسوب لكانت نصف المعاملات – على الأقل- منتهية!»
سمع ذلك التعليق ببسمة لامبالية، وإن شابها شيء من الفتور بسبب الازدحام الهائل، وبطء تحرك الطابور، وكثافة دخان سجائر الطلبة التي أشعلوها متجاهلين اللوائح بعدم التدخين، مما دفعه للسعال لكن بشكل مكتوم..
- «فلنسرع قبل بدء محاضرة الدكتور السقيمة!»
نظر بقلق صوب الطالب الذي قال ذلك لزميله، ثم سأل الفتى الذي أمامه باهتمام:
- متى تبدأ الدراسة؟
- صحّ النوم! الدراسة بدأت منذ حوالي أسبوعين!
- ماذا؟! لكن تسجيل المواد لا زال قائما!
هزَّ الفتى كتفه بطريقة اعتيادية قائلا بتنبلة:
- عندك العميد!
أطرق مفكرا لبرهة، ثم وجد ألا مشكلة هنالك، سيعوض التأخير حتما فهو طالبٌ مُجد..
غرق بالعرق رغم الجو المكيف، ولم يصدق أنه ظل واقفا لساعة كاملة..
أخيرا أدرك الموظف صاحب الوجه المتيبس، فهتف له في خلاص:
- أريد أن..
- راجعني عقب الإفطار..
- ولكن..
- نحن بشر من دم ولحم!
ورحل بسرعة البرق تاركا الفتى مبهوتا، إلا أن هذا لم يفت من عضده،

فرحل وعاد بعد ساعة تقريبا كي يجد قطارا جديدًا بوجوه جديدة، فانضم لهم وشعور بالضيق لا يكاد يفارقه..
وصل بعد جهد جهيد للموظف، الذي ناوله - وهو يمضغ بين أسنانه سيجارة جديدة- هذه المرة ورقة ، طلب منه أن يملأها، فحاول صنع ذلك على «الكاونتر» لولا احتجاج الطلبة وسخطهم العنيف، فاضطر إلى حمل ورقته والانسحاب إلى ركن هادئ كي يتمكن من العمل..
عاد ليجد الطابور على حاله تقريبا، لكنه قرر بأنها معاناة ليوم واحد فقط..
- «تفضل الطلب..»
التقطها الرجل ليدسها وسط بناية من الأوراق، ثم جلس ليواصل عمله على الحاسوب بتلك الطريقة المتهادية متناولا دخان سيجارته التي شارفت على النفاد، كان يدخن كل سيجارة حتى يحترق العقب..
- «يا أستاذ، يا أستاذ..»
همس أحدهم في أذنه باسما:
- ناده بـ»يا دكتور»، وإلا لن يلتفت إليك!
- أهو دكتور؟
- لا، لكنهم يحبون سماع ذلك، اعتبرها رشوة كلامية!
وصنع كما نصحه زميله، فاستدار الموظف السخيف صوبه متسائلا بتقاسيم متجهمة:
- ماذا؟
- متى تنهي معاملتي؟
وضع يده على كومة الأوراق قائلا بخشونة:
- عندما أنهي كل هذه المعاملات!
وهكذا بحث عن مقعد وجلس لينتظر، انتظر كما لم ينتظر من قبل، تقلص الطابور ورحل طلبة كثر من اليأس وهو لا يزال على انتظاره..
أخيرا نهض شاعرًا بغم لا حدود له، وباتجاه الموظف - الذي يذكره الآن بغراب البين- توجه صائحا بنفاد صبر:

- يا دكتور! يا دكتور!
- ماذا؟
- ماذا عن ورقتي؟
- ما اسمك؟
- (نادر مطر)..
طفق يقلب الأوراق ويبعثرها في إهمال، ومن ثم قال وهو يكتم نفس سيجارته في المنفضة النحاسية بجواره:
- لا أستطيع إيجادها..
- كيف؟!
- هل أنت أصم؟ ورقتك ضائعة، لا أستطيع إيجادها!
انقلبت سحنته، فصرخ.. الصوت خرج من حنجرته متحشرجا، وجنون الغضب الذاهل يعصف داخله كالإعصار:
- فقدت ورقتي؟!
كاد بأن يطلق شتيمة شديدة البذاءة، فالموظف عاود العمل على حاسوبه المقيت في جفاء كأن شيئا لم يكن..
وفي النهاية كزَّ على أسنانه بأناة.. شعر بنظرات الطلبة المتأرجحة ما بين التعاطف والتهكم، وشعر بأيادٍ تربت على كتفيه معا للتشجيع..
- «لا حول ولا قوة إلا بالله..»
- «وحِّد الله يا زميل!»
- «حاول العثور على ورقته يا دكتور..»
نهض الرجل متناولا ورقة جديدة من على مكتبه، قائلا بحِدة مشتعلة وهو يشعل لنفسه سيجارة أخرى:
- املأ هذه وتعال غدًا..
- ماذا قلت؟
- ألا تسمع؟
عينا الطالب الجديد انتفخت وجحظت منذرة بمغادرة وجهه، بدا في تلك

اللحظة شبيها بالضفادع..
وبكل ما أوتي من قوة كال لكمة ماحقة حطمت أنف الرجل! ولم يكتفِ بذلك، بل وثب عليه صارخا بغضب جنوني:
- .....!!
صنع ذلك في مخيلته طبعا! إذ كيف يجرؤ على منازعة «دكتور» محترم في القبول والتسجيل؟ يجب أن يكسبه بدل الظفر بعداوته..
لكن الوقت؟ الطوابير؟ يا للمعاناة التي ذهبت أدراج الرياح!
فكر بهذا كله، حتى قاطعت أفكاره تلك العبارة العابسة:
- «انتهيت؟»
نظر شاردًا كي يفهم، فأبصر طالبا منكوش الشعر يقف بمواجهة رجل التسجيل وبيده عبوة مشروب «ريد بول».. بدا غير أهل للثقة، نظراته ماكرة مريبة..
شعر باندهاش لا حدود له لما انقلب موظف القبول الوغد كتكوتا، فناول جدول المحاضرات للفتى قائلا بابتسامة بدت ذليلة نوعا:
- هاك يا (داسم)، وحظا موفقا هذه السنة!
- لا شأن لك!
ثم غادر تاركا عبوة مشروبه على الكاونتر كما لو كان ينشد مزيدا من التحدي! هكذا، ودون أن يناديه ب»يا دكتور»!
التصقت تلك الحادثة بذهنه كالتصاق الزبدة بالقلب، هل بلطجة أيام الثانوية مشروعة في الحرم الجامعي؟ أمر غريب..
ليته استعان بذلك الطالب على الموظف لإنهاء إجراءات تسجيله باكرا..

الفصل الثاني

غرفة ذات طقس رطيب، ونافذة مطلة على أرض بور ومكب للنفايات.. سنوات الحياة الجامعية الرغداء مفتوحة على مصراعيها كذراعي وأحضان عروس، تستقبله، تعانقه.. هل الكفاح بمحله؟ لن يعرف الجواب قبل التجربة المثيرة..

كان (نادر) ممن يعشقون النضج قبل الأوان، رجولة ما قبل الأوان، في التاسعة حاول حلاقة ذقنه فتمكن من فعلها دون أن يجرح نفسه، جرب التدخين لكنه كرهه بشدة، تمكن من تحصيل رخصة السواقة باكرا، وقع في الحب باكرا، فتاة تكبره سنا أذابته ملاحتها تذويبا..

غرفة ذات جدران تم دهانها حديثا، رائحة الطلاء الكيماوي الخانقة تفوح بإصرار، السرير عبارة عن فراش مرتجل مغبر ملقى أرضا ريثما يجهز السرير الحقيقي، حمدا لله! لقد وضعوا له ثلاجة، صحيح ألا كهرباء هنا.. وضع حقيبته، وقبل شروعه بتفريغها سمع طرقات على بابه، هذا زائره الأول، مناسبة تستحق الاحتفال..

انفتح الباب قبل أن يفتحه هو، وظهر كهل مبعثر الهيئة يحمل استمارة ما، بسرعة صال بصره وجال أرجاء الغرفة الضيقة وسجَّل:

- فراش واحد، مكيف واحد، ثلاجة واحدة..

غمغم باسما:

- ولا كهرباء!

تجاهله مواصلا التسجيل:
- خزانة واحدة، سجادة واحدة، هذه الأغراض عهدة أتفهم؟
- مثل الفنادق؟
- خفيف الظل! إذا أفسدت شيئا..
- أدفع ثمنه طبعا..
- تمام! والانضباط أهم شيء!
وخرج مسرعا للغرفة المقابلة، رجل عملي يجيد عمله..
قبل إقفال الباب ظهر على عتبته بغتة كهل آخر أصلع لكنه أكثر رقيا، يرافقه شاب طفولي الوسامة غزير الشعر، يرتدي هنداما غير مكوي ويحمل حقيبة ضخمة.. قال الأصلع الكهل مزيحا الطريق للفتى كي يلج:
- غرفة (13)؟
- لو طالعت الباب لأدركت الجواب!
لم يعجبه الرد، في حين تبسم الشاب كأن الرد قد راقه كثيرا..
طالعه الكهل بنظرات متفحصة قائلا بحروف مضغوطة رتيبة:
- أتيت لرؤية زميل ابني والتأكد من أخلاقه.. تدخن؟
- لا..
- ممتاز! لا سهر ولا نزهات ليلية.. اتفقنا؟
- اتفقنا..
أغاظه هذا الوالد الجديد لكنه لم يظهر مشاعره الحقيقية..
- «هذا (حازم)، شريكك الجديد في الغرفة، أترككما للتعارف..»
وغادر وهاتفه النقال في يده، كان يكره أولئك الذين يتجولون وهواتفهم النقالة في أياديهم، لم يكن يثق بهم!
رمى (حازم) حقيبته واضطجع عليها قائلا ببسمة لطيفة:
- ضايقك أليس كذلك؟

- كثيرا!

- هكذا والدي، دائما يحرجني أمام الكل كما لو كنتُ صبيا صغيرا..

- إنه والدك..

- يخاف علي ويبغي مصلحتي...! سبب وجيه للتعاسة.. سيجارة؟

قالها مقرنا القول بعلبة سجائرMarlboro Gold Lights أخرجها من جيبه، فتمتم (نادر) باسما بعبوس:

- لا أدخن ولا أحبذ المدخن..

- حقيقة؟ حسبتك تخدعه كديدن الشبان! قانون الشبان الأول: اخدع والد رفيقك تكسب وده!

وأشعل سيجارته مُستخدما قداحة فضية على شكل تنين، فأدرك (نادر) أن اليوم الأول له في السكن سيكون مليئا بالمتاعب الجمة..

فتح النافذة علَّ الشاب يفهم ويخجل، لكنه نهض مفرغا الحقيبة من متاعها ومدمدما والسيجارة في فمه:

- أدب إنجليزي.. وحضرتك؟

- هندسة حاسوب..

- أذكى مني؟! الأوقات العصيبة قادمة! إذا علم والدي سيظل يذكرني بزميل الغرفة الشاطر! ألا تستطيع الكذب والقول أنك معي في نفس الكلية؟

- ربما إذا كففت عن التدخين هنا!

- موافق!

وأطفأ سيجارته متحمسا، فبادله (نادر) الابتسام بأريحية..

تنبه إلى ذاك الذي يشوه عنقه من الناحية اليسرى أسفل الحنك، حرق عنيف، كيف لم يتنبه إليه؟

ثمة كذلك آثار من ذلك الحرق بلغت جبهة الفتى، كان شيئا بشعا أقرب للجفن هنالك!

تنبه أيضا إلى أن الفتى يطالعه بنظرات متفهمة، شعر بحرج دفعه إلى أن يقول:

- آسف!

- لا عليك! إنها حادثة قديمة.. هذا ما يحدث لمن يلهو بالنار! حسبت الغاز مطفئا وأنا أشعل أعواد الثقاب تلك، فكانت النتيجة..

ووضع إصبعا فوق الحرق على جبهته مباشرة..

ثم واصل استخراج متاعه، متاع كثير انبثق من تلك الحقيبة الشبيهة بحقائب المخيمين، أدوات طبخ وثياب و.. نارجيلة!

يقول (حازم) متفقدا نارجيلته كما يتفقد الجندي سلاحه:

- هذه حياتي أنا! بعيدًا عن المراقبة، بعيدًا عن الأنظمة والقوانين واللوائح المنزلية المقيتة!

يفك النارجيلة، يعاود تركيبها، تماما كالسلاح..

- قالوا إن الجامعة هي الملاذ، هي الحياة، هي الهيكل! هي تفسير الكون والإيمان بالخالق! وأنا أصدقهم بكل جوارحي.. تاج الحرية الذي أضعه أخيرًا على رأسي.. حقا إنهم لعظماء!

- من قالوا؟

- رفاقي! كلهم سبقوني للجامعة بسبب إعادتي الثانوية العامة..

- وهل هم في هذه الجامعة؟

- كلهم سافروا خارجا، إلى باكستان والهند وأمريكا واستراليا..

أنا لا أوافقهم في مسألة دراسة الخارج هذه، أفضل البقاء هنا حتى وإن عرج عليّ والدي أسبوعيا لتفقد أحوالي..

إذاً فوالده من النوع الذي يعاين ولده، وأسبوعيا أيضا! يا للكارثة!

- «دعني أساعدك..»

- «لا شكرا.. على فكرة لم أتشرف بمعرفة اسمك؟»

- «(نادر مطر)..»

- «تشرفنا! (حازم نافع)، ستتذكرني دائما، فسأكون بئر أسرارك ومرشدك لأفئدة الفاتنات، أنا الصديق المثالي!»

ونهض رافعا كفا مفتوحة الأصابع، تستكشف المجهول، صاحبها نطق كالحالم موجها إياها كقوس أفقي في الهواء:

- معا سنلج عالما جديدا يا بني! عالما شيقا مثيرا! عالما..

لا كلمات لوصفه! بل ثمة كلمات.. عالما جديدا... جديدا!

راقب (نادر) حماسة شريك الغرفة وصديق المستقبل باسما، حقا إن الجامعة حلم وردي خلاب، الكل يحلم بالجامعة والحب والثراء والشهرة، الجامعة حلم لأنها طريق مفروش بورود الشهرة والثراء وحتى الحب، حلم واقعي غير مفعم بالمخيلة المستحيلة، قابل للتحقيق إذا ما كدَّ المرء وصبر، لكن بالإمكان قضاء وقت ممتع أيضا والظفر بقصص رومانسية بديعة..

نظر (حازم) حوله قبل صياحه بدهشة واستنكار:

- ولكن أين الأسرّة؟ أين فراشي؟!

الفصل الثالث

قال (حازم) وهو يضع صينية طعامه على الطاولة في قاعة الكافيتريا :

- من يصدق أن الطعام هنا ليس بالمجان؟ أليس من المفترض أن يكون كذلك؟ هذا احتيال!

وأظهر ملامح العبوس على وجهه متمعنا في طبق (نادر)، ثم ملامح وجه (نادر)، وأخيرا قال راسما بكلتا يديه دوائر هوائية:

- صعب! صعب!

غرز (نادر) شوكته البلاستيكية في قطعة «فيليه» الدجاج المالحة دون أن ينطق.. في حين وضع (حازم) منديلا على ياقته، فبدا كطفل تلقمه أمه ملعقة سيريلاك!

قال بعصبية متناولا بشهية مفتوحة قطعة خبز مدورة:

- المنهاج صعب والكتب سميكة غالية! والدكتور يصرّ على استخدام الإنجليزية طيلة الوقت رغم أنه عربي، يرفض ترجمة كلمة واحدة كي نفهم، ويرفض أن ننطق بحرف عربي واحد كما لو كان خجلا من عروبته.. لا يمكن الشكوى من الناحية التنظيمية فهنالك العديد من الهيئات الإدارية المنتشرة في هذه الجامعة!

تساقط فتات الطعام على صدره حيث وضع المنديل، فأدرك (نادر) أنه لا يضعه عبثا..

كان يومه شاقا كذلك، الدكتور لم يلج بالمفيد، بل أضاع الوقت في سرد اللوائح والقوانين الخاصة به كشاويش العسكرية لما تبين وجوها جديدة

في محاضرته، لا أحد يدخل بعدي، لا أحد ينطق في محاضرتي، لا أحد يعطس أو يتنفس.. ضاع الوقت في هراء وثرثرة عقيمة..
(حازم) يثرثر كالمذياع المسكون، إذا نزعت فيشته وجدته لا زال يثرثر!
لكن (نادر) لم يمنحه أذنا صاغية، فقد تناهى لأذنيه معا أصوات ضحكات أنثوية مفعمة بالحيوية، وعندما التفت ونظر سقط في الشرك الأول..
كان قد أتى بمنحة دراسية، فلا وقت يضيعه في المسائل العاطفية..
لكن التي لفتت نظره تبدت جميلة حقا، آسرة حقا، غانية بلا تبرج، وذلك أكثر ما أعجبه بها..
قرأ اسم المرجع من تلك المسافة فقد كان يتمتع ببصر زرقاء اليمامة، مرجع نفسي ليونغ، تدرس الطب النفسي إذاً..
- «(سوزان جميل)!»
تنبه للاسم، أخيرا لفت (حازم) اهتمامه، فتأمله مناشدا تفاصيل أكثر..
- «جميلة أليس كذلك؟ أظنها تدرس علم النفس كي تظفر بعلاقة ذات روابط متينة!»
ثم أتى شاب ممن يحملون الهاتف الجوال بأياديهم، أي أنه غير أهل للثقة! بل ويطوِّق عنقه بقلادة ذات مخلب عاجي! فلفَّ ذراعه حول كتف الفتاة هامسا بشيء في أذنها التي تدلى من شحمتها البضة قرط لؤلؤي، فتبسم (نادر) منكس الرأس.. تبا للأنثى! تبا للمغناطيس الذي تحمله! فهي تجذب كل شيء ذكوري حتى وإن كان مُخزنا في العقل أو بين ثنيات القلب!
- «بالطبع لابد للملاعين الأثرياء أصحاب السيارات الفارهة الظفر باهتمامهن! ونظل نحن نقبع في بقعة الظل!»
ابتسم بخيبة أمل متسائلا دون اهتمام حقيقي:
- من يكون؟

- (عاطف سراج)، زميل كذلك في كليتي، وممثل فاشل يحسب نفسه (آل باتشينو)! لولا والده رجل الأعمال لأضحى صعلوكا لا فائدة ترجى منه!

- ولماذا يحسب نفسه (آل باتشينو)؟

- دائما يحاول عمل مسرحيات مقتبسة من أفلام (آل باتشينو)، قدم قبلا (طريق كارليتو) والآن يُحضر لـ (عطر امرأة)!

- ما شاء الله! هذه أول سنة لك مثلي، لكنك تتحدث وكأنك هنا منذ تأسيس الجامعة!

- العلاقات في الوسط الجامعي مهمة يا بني، وإلا لفظتك الحياة الجامعية كالشوكة العالقة.. هناك وسط تلك الشلة المبهرجة تجد (سامي جليل) كابتن فريق الجامعة في السباحة، شاب رياضي القوام من النوع الذي يُقبل عضلات ذراعيه طيلة الوقت! إذا تأملت الزاوية تجد شلة الأنس الخاصة بالسكن! عصابة (سائد) التي تخرج في جولات ليلية ولا ترجع السكن قبل الساعة الخامسة فجرا..

ليس هذا فقط، أترى منكوش الشعر ذاك صاحب عيون الذئب؟

نظر (نادر) فوجده، بشحمه ولحمه، الفتى الذي أنهى تسجيله باكرا وبزمن قياسي في مكتب القبول والتسجيل.. صاحب النظرات غير المطمئنة! رد مجيبا:

- كنت لأشبه عيونه بالضبع!

- اسمه (داسم عواد)، وهو سجين سابق بجنحة صدم صبي بسيارته، يقولون إنه كان مخمورا يوم الحادثة.. لحسن حظه أن الصبي لم يلق حتفه!

أثار ذلك الكلام اهتمام (نادر) وهو يطالع بحدقتين فضوليتين ملامح الشاب الماكرة وشعره المنكوش بلا هوادة، كان بالفعل يمنح المرء انطباعا بعدم الارتياح، عيونه عيون ضبع خسيس، شاب باعث على النفور..

لاحت بسمة على ثغر (حازم) وهو يهمس:

- يبدو وأنك أعجبت به!
- شخصيته مثيرة للاهتمام لا أكثر..
- أعرف الذين لا يندمون على أفاعيلهم الرهيبة التي قاموا بها حين أقابلهم، أراهنك أن هذا الفتى واحد منهم.. بإمكانك رؤية الانبعاج في مقدمة سيارته الناجم عن الحادث، لم يكلف نفسه عناء إصلاحه وكأنه يحافظ عليه كتذكار!
كن حذرًا فهو معنا في السكن، إياك وطرق بابه محاولا اقتراض كتاب أو ربطة خبز وبعض المعلبات!
- وأفترض أنك تعرف كذلك رقم غرفته؟
- إنها غرفة رقم (9)!
- جميل!
- والأجمل ما سمعته عن غرفتنا ذات الرقم المنحوس!
دمدم (نادر) بلهجة ملول:
- إنها مسكونة بالعفاريت، وبأن الطلاب الذين سكنوها قبلنا هربوا فزعين من..
- يا مسكين! هل تعلم أن طالبا في كلية الهندسة قد انتحر في غرفتنا؟
- هذا هراء..
- بل حقيقة مؤكدة! يقولون إنه أغرق نفسه في البانيو!
تنهد (نادر) قائلا وأظفر سبابته يداعب شحمة أذنه بملل:
- حكاية ملفقة حتما، كما أنها مبتذلة.. الشباب يسخرون منك، هذا كل ما بالأمر!
- ربما.. آه! أترى ذاك الممتلئ الذي يحيي الكل بود وكأنه يعرفهم منذ الطفولة؟ حذار منه، فهو طالب معنا في السكن، اسمه (هيثم) ويلقبونه السنجاب!
- سنجاب؟!
- لأنه واش قذر! جندته إدارة الجامعة ومشرف السكن لمراقبة الطلبة، وكتابة تقارير عن كل شاردة وواردة!

- تقصد الجرذ..

- ماذا؟

- الجرذ وليس السنجاب!

- لم أفهم ما ترمي إليه!

اتسعت بسمة (نادر) قبل أن يضحك!

- «علام تضحك؟»

تساءل (حازم) باسما، فهزَّ (نادر) رأسه ألا شيء مهم يذكر..

التقطت زاوية حدقته بغتة ذلك الشاب الغريب، هندامه غير معتنى به وشعره الخفيف لحد الصلع المبكر وتقاسيمه العابسة، وأكثر ما تذكره قبضتيه، لماذا يغلفهما بالشاش بتلك الصورة؟ أهو مصاب؟

الشاب بالقبضتين المضمدتين بالشاش الطبي..

كان يجلس وحيدا يدخن رغم اللوائح التي تحظر التدخين داخل الحرم والكافيتريا.. الظاهر أن الجميع هنا يتجاهل تلك اللوائح تماما!

ينفث حلقات متتالية ذات حجم واحد وبإتقان مذهل.. من تراه يكون؟ ربما (حازم) يعلم..

- «لا أعرفه!»

واجه (حازم) بنظرات تفصح بعض الشيء عن مكنوناته، ثم نطق أخيرا:

- لا تعرفه؟

دمدم (حازم) ساخرا متناولا مشروبه الغازي:

- لا يبدو متسما بالود والتهذيب، أظنه أتى من درك المدارس السفلي! حيث المشاجرات الدموية مع التلامذة والمدرسين، والتدخين في دورة المياه..

- يبدو غير آبه لأحد..

- يبدو كالخارج من مصح عقلي عقب محاولته الانتحار!

- ألأنه يلف قبضتيه بالشاش؟

ونقر (نادر) صينيته مفكرا.. اختلس نظرات حذرة ناحية المجنون الهارب من المصح.. تعابير وجهه قاسية حقا، كان يجلس في ركن شبه منزو، يأكل ببرودة، ويشرب ببرودة، ويدخن ببرودة، غير مكترث للعالم، لا شأن له بأحد، ويكره تدخل الآخرين بشؤونه حتما..

- «يشاع أن دكتورًا حاول طرده من القاعة لحضوره متأخرًا، فرمى به بين المدرجات!»

- «قلت أنك لا تعرفه، والآن صِرتَ عالما بماضيه؟!»

- «أمازحك فحسب!»

- «أنت تحاول إخافتي!»

وتناول (نادر) لقمة أخرى بشوكته باسما..

لكن الفتى الغامض بدا مفعما بالمجهول والألغاز المثيرة.. نحن نعجب أحيانا بأولئك الذين يتحدون القوانين المتسلطة، نظهر امتعاضا منهم ونحسدهم بالباطن والخفاء، لقد تحرروا لأنهم امتلكوا الجرأة، فيما نحن لا نملك إلا التنفيذ كالآلات المبرمجة.. هو لا يعلم ما صنعه الفتى، لكنه بدا بالفعل ممن يروق لهم تحدي القوانين طيلة الوقت!

وثبت خاطرة من خواطره على لسانه فقال:

- أنا أحسده..

ولم يُضف المزيد، فترك صاحبه يتساءل باستغراب:

- تحسده على ماذا؟ على ماذا؟!

بدا إلحاحه مزعجا ومغريا بتجاهله أكثر..

الفصل الرابع

فلنتحدث قليلا عن أنشطة طلبة السكن عقب يوم مفعم بالمحاضرات الشاقة..
بعد المحاضرات المضنية ثمة خيارات رياضية متعددة، أهمها: كرة القدم..
لا أحد يمارس بناء الأجسام سوى شلة الأنس، بعض الطلبة يأتون للنادي لممارسة البلياردو على الطاولة الوحيدة هناك وبمراهنات مالية أيضا، في حين انفرد فريق السباحة بقيادة (سامي) بالمسبح لتدريباته الخاصة، فلا أحد من طلبة السكن يرغب الظهور بغيار داخلي أمام زملائه!

في الملعب يظهر جانب خفي من شخصية (حازم) لم يكن متوقعا، الفتى اسم على مسمى في ميدان كرة القدم، التقسيمة يقوم بها مع لاعب آخر، يختار لاعبا والأخر لاعبا، (نادر) لعب كحارس مرمى اختير ضمن فريق (حازم)..
كان صديقه صاحب الحرق ماهرا لحد لا يصدق، بإمكانه اللعب في خط الوسط والهجوم والدفاع، كصانع ألعاب لا تفشل كراته المرسلة أبدا، كمهاجم أهدافه حتمية أو شبه، في الدفاع صخرة كما يقولون، وكل هذا يصدر عن فتى مدخن!

أحيانا يصرخ بنادر كي يخرج من المرمى لدى انفراد لاعب الفريق الخصم به، حراسة (نادر) لا بأس بها حتى ينفرد أحدهم بالمرمى، وعندئذ يقبع واقفا بانتظاره!

وعند انتهاء المباراة، يهمس (نادر) متضايقا كحمَّال الهموم:

- ليتك تركتني على مقاعد الاحتياط!

- أنت حارس جيد، كما أنك حر الإرادة ولستَ مأمورا! وأنا اخترتك لسبب،

وهو أن مهاجم الخصم يسدد كرات يصعب التقاطها باليد.. لاحظت أنك تصد برجليك كثيرا، لذا..

- أنت تقول ذلك كي..

- لا! في اللعب لا أحاول التخفيف أو التهوين، أنت رائع، لكن مشكلتك الوحيدة هي انتظار لاعب الهجوم، أحيانا تكون المواجهة حتمية..
يجب أن تخرج لمواجهته ندًا بند!

****

قاعة تلفاز السكن، حيث تجلس فئات معينة في مواعيد دقيقة أحيانا وعشوائية أحيانا أخرى.. السودانيون يتابعون قناة وطنهم لمعرفة آخر أخبار إقليم دارفور، وآخر تصاريح الرئيس البشير، وآخر ما تم بثه من أخبار متعلقة بالنميري.. فإذا أعيتهم السياسة، تبادلوا ثرثرة تخللتها السياسة أيضا، حتى يظهر مطرب سوداني أعمى مع فرقة تعيسة تعزف ألحانا أكل الدهر عليها وشرب، فيدندنون ويطرقعون بأصابعهم وقد غلبهم الطرب!
طلبة من موريتانيا لا يتزحزحون عن قناة الجزيرة، السياسة تسلبهم كذلك، لكن عبر قضايا متنوعة تخص الوطن العربي وخلافه..
طلبة تشاد وغانا يتابعون دوما قنوات باللغة الفرنسية، كأنما يتشدقون على البقية إلمامهم بها، يتبادلون الحوار بالفرنسية والبقية صم بكم!
ثم يحين وقت المباراة، فتجد القاعة قد امتلأت عن آخرها، الكل يصرخ ويهلل وكأنه وضع مصروفه رهانا لنتيجة المباراة، أحيانا يشاركهم (حازم) المتابعة على هوى قوة المباراة وأهميتها..
وأخيرا فئة ضئيلة، تتضمن (نادر) و(حازم) كذلك، وشاب يدعى (وسام)، يتابع ثلاثتهم فيلما ما.. (وسام) يرغب بمتابعة الفيلم العربي، و(حازم) وهو يفضلان أي فيلم أجنبي..

****

الحفاظ على ساعات الدراسة أمر بالغ الدقة والأهمية، كما أن مواعيد النوم ذهبية، فإذا ما سهر أكثر على التلفاز، أو اختصر بعض الوقت في جلوسه إلى طاولة الدراسة، صارت الفوضى حقيقية وملموسة..

منذ الأسبوع الأول أدرك (نادر) أنه لن يتأقلم مع (حازم) أو حتى باقي زملاء السكن، لقد أتوا استعدادا للحرية وفعل أي شيء وكل شيء، لا أحد يلقي بالا لمشرف السكن أو سنجابه، الكل أحضر أجهزة تلفاز ودش وحواسيب وأراجيل في تحد واضح للوائح التي حسبها صارمة.. بدا وكأن المشرف الكهل معدوم الحيلة، لم يحدث أن رآه يصرخ بطالب متأخر أو آخر مدخن، ليس تبسطا منه وإنما لخوفه منهم..

في مصلى السكن يجلس طلبة الشريعة الإسلامية.. لحظة واحدة، إذا ما حسبتهم يجلسون لتدارس تفسير الجلالين أو الترغيب والترهيب فأنت واهم! كانت شرذمة من طلبة تأمل التخرج سريعا، أبعد ما يمكن عن التقى، جميعهم صعاليك لم يحدث أن صلوا يوما، فقط يريدون الظفر بأية شهادة والسلام!

كان (عمار) الطالب الوحيد من بينهم الملتحي والداخل كلية الشريعة لأهداف أسمى، يتلو القرآن بعقيرة جميلة، ويؤم الصلوات الخمس بمصلٍ واحدٍ فقط.. ألا وهو مشرف السكن الكهل!

أما البقية فصنعت من المسجد مجلسا للسمر، حتى أنهم ذات مرة لعبوا الورق داخله!

شلة (سائد) – شلة الأنس- تحتل آخر غرفة في الممر، غرفة حملت الرقم (20)، حيث يتصاعد منها ضجيج وصخب طيلة الوقت، بإمكانك شم ورؤية الدخان المنبعث من أسفل الباب لكثافته وكأنه ضباب، كان المشرف

يظهر حقده عليهم أمام الكل فيما عداهم، حيث يحييهم بحرارة كلما مروا من أمام مكتبه، ثم يقول مخاطبا نفسه أو الطالب الجالس أمامه للتباحث حول مشكلة تعرقله:

- الملاعين! إذا ما أقفلنا باب السكن الرئيسي وثبوا كالسعادين عبر النوافذ! فإذا قابلوا (هيثم) السنجاب استوقفوه بعبارات ساخرة على غرار: «مدلكة المدير وصلت»! أو «رائحتك فاحت في السكن»! فإذا تجاسر على إظهار غضب أو امتعاض قاموا بضربه دونما هوادة!

كان (حازم) يتساءل عندما يقع بصره عليهم:

- ترى ماذا ينتظر مدير الجامعة كي يطردهم؟ لابد وأن السنجاب قد مرر عشرات التقارير إلى طاولة مكتبه..

ردَّ (نادر) بغير اكتراث:

- ربما جريمة سرقة أو قتل كي يدخلهم السجن!

- كما يبدو!

السنجاب يستنجد وقد حملته شلة الأنس وانطلقت ربما لرميه في حاوية القمامة بالخارج، هذا جزاء الواشي، لا أحد يحاول مد يد العون له، نهاية الواشي سوداء دائما، كذا علمتنا قصص التاريخ!

(مراد) ابن القنصل يخوض مناظرة كلامية تحولت إلى مشادة مع طلبة السودان، هل بخصوص دارفور؟ أم النميري يا ترى؟

(هشام) يضرب طالبا من تركيا، ماذا كان السبب؟ أنه لا يتمكن من فهم ما يقوله؟

(فادي) الملقب ب»نحول» يسير حاملا وجبة عجيبة من الحمص السابح كميكروبات وسط بحيرة من المرق البارد، فيقرف الجميع من حوله ويسد شهيتهم تماما!

حقا إن السكن لسيرك، مسل كله تهريج ونقص نضج، هذا أفضل ما في الموضوع..

الطالب الوحيد الذي كان مقتنعا أنه ناضج تلقى علقة ساخنة من شلة

الأنس، لأنه سخر منهم عندما دخل قاعة التلفاز ووجدهم يتابعون مسلسلا كارتونيا، كان طالبا جديدا لا يعرفهم حق المعرفة، فدفع ثمن ذلك غاليا..

****

الساعة الآن التاسعة، ميعاد نوم (نادر)..

- «تصبح على خير..»

ربت (حازم) على كتف صاحبه متسائلا بعتاب باسم:

- أحقا لازلت محافظا على مواعيد نومك المضحكة؟ يا بني هذا سكن جامعة وليس خم دجاج!

- محاضرتي غدا في الثامنة، وعليّ الإفاقة باكرا..

- ما علينا، اذهب واستسلم لنومك المضجر، وسأذهب أنا لقضاء وقت حافل بالمتع مع «قلب المحيط»!

تبسم (نادر) متسائلا باستغراب:

- وما «قلب المحيط» هذا بحق الله؟ نوع من رأس الشيشة؟

- لا يا فالح! على العموم إذا أردت أن تعرف فتعال معي!

لم يكن فضوليا بطبعه، لكن ما أخفاه عن رفيقه أن الأرق أعلن في الآونة الأخيرة هجوما كاسحا على خلاياه، سادًا عليه سبل النوم..

كانت فكرة تناول العقاقير المنومة قد راودته، ويوما بعد يوم بات يخشى التورط بتلك المسألة باحثا عن حل بديل.. ربما يتوجب عليه السهر قليلا حتى النعاس..

هكذا وافق على مرافقة (حازم)، فخرجا من السكن، وسارا مسافة حتى بلغا قاعة الحواسيب الخاصة بكليته، فتساءل مندهشا:

- ماذا نصنع هنا؟

- اصمت وعاوني..

- على ماذا؟

فوجئ به يجر حاوية حتى أسفل نافذة من نوافذ القاعة، فما إن صارت في الموقع المناسب حتى نفخ (حازم) الهواء بقوة من فرط ثقلها، متمتما بمرح منهك:

- شكرا للمساعدة!

- ماذا ستفعل؟

- ماذا سأفعل؟ بحق الله تسأل؟ أأنت أبله أم ماذا؟ سنتسلل أنا وأنت للداخل طبعا!

بهت (نادر) وقال متراجعا خطوات للوراء:

- لا!

- تبدو مضحكا! هلم، أنا لا أستضيفك في غرزة! هذه النافذة قابلة للفتح، ندخل، نلهو على الإنترنت قليلا ثم نخرج، صدقني لن يحس بنا أحد!

- ماذا عن مراقبي الحواسيب؟ أنسيت أن الأرقام السرية الخاصة بنا ستظهر في وقت إغلاق القاعة؟ نحن عرضة للاعتقال وبكل حماقة!

أخرج (حازم) من جيبه العلوي بطاقات كرتونية قائلا بمكر:

- عيب! تحسبني طفل الأمس الغافل؟ حسبت حسابنا من الطلبة القدامى الذين فصلوا أو غيروا هذه الجامعة، فقد اكتشفت منهم أمر النافذة وسرًا لا يجب أن يشاع، وهو أن مراقبي الحواسيب لا يبطلون مفعول الأرقام السرية هذه، لذا ونتيجة لإهمالهم سنستمتع أنا وأنت! هه؟ ماذا قلت؟

كانت فكرة التسلل لوحدها خطرة، لكن ليست بخطورة تناول عقاقير منومة..

- «قلب المحيط.. إنها فتاة على موقع دردشة، أليس كذلك؟»

قهقه (حازم) بطريقة شبه مكتومة مجيبا:

- دعنا ندخل وسنجد لك فتاة أخرى تناسبك حتما!

الفصل الخامس

المكان مظلم، لكن الإنارة الآتية من الخارج متكفلة بجعلهما يتبينان دربهما جيدا..

انتقى كل منهما جهازا يبعد عن الآخر مسافة ضئيلة، وضغط (نادر) أزرار إدخال الرقم السري الخاص بالطالب المفصول..

أتاه صوت (حازم):

- ادخل موقع الدردشة الآتي..

دوَّن (نادر) عنوان الموقع، ثم استعار للدخول اسم (الجانب المعتم)!

- «اختر اسما جذابا لا ينفرهن..»

- «ما الاسم الذي اخترته أنت؟»

- «الأمير الأزلي! ما رأيك به؟»

أومأ (نادر) برأسه مواصلا بالاسم الذي انتقاه غير آبه، في حين قال (حازم) مشعلا سيجارة:

- سأضع بعض الموسيقا..

- ستفضحنا!

- ليست هذه أول مرة! ثق بصاحبك..

أغنية لفيروز، جميل، مناسبة تماما.. أسماء مستعارة لفتيات تملأ الشاشة، لاحقا أخبره (حازم) أن بعضها لفتيان يدلفون بأسماء فتيات للإيقاع ببعضهن، يتظاهرون بأنهم صديقات متفهمات! هذا هو الشائع في عالم

«الشات»!

- «صدق أو لا تصدق، فتاة تسألني عن الاسم الغريب الذي انتقيته!»

- «ما اسمها؟»

- «ساندي..»

- «ذوق رفيع! هلم جرب وسأدعو لك!»

- «ماذا أقول؟ أقصد أدوِّن؟»

- «مساء الخير، اخترت هذا الاسم لأني أحمق! ثم أرغب بالتعرف.. الخ»

- «يا مُسهِّل!»

صنع كما نصحه (حازم)، فتلقى استجابة مبكرة شجعته على المواصلة..

- «تسألني عن اسمي الحقيقي..»

- «لا تخبرها يا مغفل! اسألها عن اسمها أولا ثم امنحها اسما زائفا، بعدها حاول معرفة رقم هاتفها.. أهي زميلة؟»

- «في كليتك..»

- «عظيم! قلت لي ما اسمها؟»

- «إليك عني!»

وتضاحكا قبل معاودته ضغط الأزرار مستمتعا، لم يحدث أن خاطب أنثى غير والدته وبنات أخواله وأعمامه، طريقة ممتعة وآمنة غير باعثة على الحرج والمشاكل!

تزعم (ساندي) أنها رومانسية بصورة غير طبيعية، تقرأ الروايات الرومانسية ولا شيء غيرها، مهووسة بمتابعة المسلسلات المكسيكية لأن ممثليها أصدق في إبداء العواطف.. دعا ربه ألا تكون فتى باسم مستعار لأن مصداقيتها وتبسطها قد أثرا به..

أغنيته المفضلة للمطربة المظلومة (أميمة) تنبعث من سماعات حاسوب (حازم)، لماذا لا يشتهر الفنان الحقيقي كشهرة صعاليك «سوبر ستار»؟

(أميمة) صوتها عذب وتغني بإحساس صادق مرهف، كانت فنانته المفضلة بعد (فيروز) و«بيتهوفن العرب» (مارسيل خليفة)..

«عصفور طل من الشباك وألي يا نونو..
خبيني عندك خبيني دخلك يا نونو..
خبيني عندك خبيني دخلك يا نونو..»

(ساندي) تحزن إذا ما رأت عصفورا محجوزا في قفص، فلسفتها ألا حبس لكائن حي، تحب الأشعار الرومانسية، (نزار قباني) يحرك فؤادها بشعره، (ساندي) مرتبكة بشأن جنسيتها، تارة مصرية وتارة لبنانية، جميل أنها لم تقل مرة: (ساندي) من؟ أنا أدعى (سوسن) أو (سارة)!
أغنية قديمة لإيمان البحر درويش، ذوق (حازم) عجيب حقا.. (ساندي) تفشل في امتحان السواقة دائما، المحرك ينطفئ كلما بادرت بتشغيله، كثيرا ما تنسى ربط حزام الأمان وتفقد المرآة المعلقة، والشرطي المراقب لا يرحم..
- «اسمع! قلب المحيط تريد دعوتي إلى حفل عيد ميلادها المقبل!»
- «مبروك!»
- «أدعو الله ألا تكون مجرد عانس في السبعين!»
- «قد يحالفك الحظ وتصادق ملكة جمال..»
- «هذا إنجاز يستحق الاحتفال على كل حال.. ماذا يحدث عندك يا وجه الخير علي؟»
- «أحاول التخفيف من معاناة المسكينة!»
- «أخصائي اجتماعي؟! دعها وابحث عن غيرها يا رجل!»
- «لا أستطيع، قلبي تعلق بها!»
- «ستتعلم كيفية التعلق بغيرها.. صدقني!»

(نادر) يطالع الشاشة بشغف قبل تنبهه للساعة المعلقة على الجدار..

- «رباه!»

- «ماذا؟ أتى أحدهم؟»

قالها (حازم) مسارعا بالتواري أسفل الطاولة، لكن (نادر) قال مهدئا:

- لا، الساعة الآن الواحدة إلا ربعا!

نهض (حازم) وهو يقول ضاحكا ودخان سيجارته يخرج من منخريه:

- أفزعتني يا أحمق!

- تأخرنا!

- اجلس يا بني، فالسهرة لا زالت بأولها!

الفصل السادس

الجامعة كخلية النحل، نشاط في شتى المجالات، طلبة يتجمهرون حول أي دكتور مار، كأنما يطاردون نجما بُغية تحصيل أوتوغرافه..

كان على (نادر) الاجتهاد كدأبه، صحيح أنه استيقظ ذابل العينين وكاد يتأخر، لكنه ارتدى ثيابه وأسرع للمحاضرة دون غسل وجه أو إفطار، فتمكن من اللحاق بالدكتور قبل ولوجه..

حضر جميع المحاضرات، وناقش الزملاء فيما استعصى عليهم فهمه..

وأخيرا جلس في قاعة الكافيتيريا الواسعة كملعب للسلة، متناولا قدحا من القهوة للاستفاقة ومعرفة ما يدور حوله بالضبط..

جاء (حازم) حاملا كوب شاي بلاستيكي، فتبسم (نادر) قائلا له:

- صباح الخير، كانت ليلة أمس ممتعة!

- أخبرتك!

وجلس قائلا بصدر ضيق:

- طلب العلم.. يحتاج لإرادة وأعصاب من حديد كي لا تنطلق قبضتي كمقذوف في وجه الدكتور المغرور، ذلنا بمسألة دراسته تلك في الخارج!

- إلى هذا الحد؟

- أوه! يبدو (سائد) متحفزا للمصائب كدأبه!

تلفت (نادر) لرؤية ما يحدث، فأبصر قائد شلة الأنس يقف بمواجهة فتى الشاش الطبي شخصيا!

كان يصرخ بوجهه متصنعا الفتوة:

- أتريدني أن ألقنك درسا؟

- ماذا تريد؟

كان الفتى الغامض جالسا كأن الأمر لا يخصه كالمعتاد، فأزاح (سائد) كوب شاي الفتى بعنف ليسقطه أرضا، وصاح مصوبا إصبعه في وجهه كفوهة سلاح:

- من سمح لك بمخاطبة فتاتي؟

لم يقل صديقتي حتى بل فتاتي! ملكية الفرد المقدسة! ترى ما رأي فتاته بالموضوع؟

- «فتاتك؟ هذه جامعة وليست نادٍ للتعارف بين أزواج المستقبل!

ثم عن أي فتاة تتحدث؟»

ردَّ (سائد) بخشونة:

- أنت تعلم أنني أتحدث عن (ندى)!

- لا أعرفها..

- أتظنني بتلك الحماقة؟!

- قلت لا أعرفها.. ارحل بسلام!

- صعلوك مثلك يأمرني بالرحيل؟! هزلت والله!

- يبدو وأنك تنشد مشكلة! أراهن أننا لو سألنا الفتاة لأنكرت معرفتها ببغل مثلك!

- أنا بغل؟! أنت البغل!!

تفاجأ بالفتى يقبض على ثلاثة من أصابعه، وبعنف مضحك هشمها قائلا بخشونة:

- هأنتذا تشير ثانية!

صار (سائد) خاضعا كخروف العيد، وجهه يشع تعابير متضرعة، والشاب قابض على خصلات من شعره دون أن يفلته، مستمتعا بزيادة آلامه..

- «إذاً.. ما حكاية (ندى) هذه؟»

- «لا حكاية! كنتُ فقط..»

- «تبحث عن المتاعب؟ تماما كما خمنت! اخترت الشخص الخطأ يا صاحبي لتمازحه!»

فجأة هبَّ (نادر) واقفا ليقول بحزم:

- كفى! إنك تؤلمه!

خيل للجميع أن الشاب الغامض قد تسمر، بدا جامد التعابير مراقبا الفتى الضئيل الذي أمره، كما لو كان يفكر بتحطيم فكه على تجاسره.. لكنه انصاع للأمر، فأفلت أصابع (سائد) راسما على شفتيه بسمة استهانة، قبل أن ينهض ويذهب في حال سبيله!

و(حازم) يهمس في أذني (نادر) منبهرا:

- هذه شجاعة نادرة يا (نادر)! لكنها حماقة بذات الوقت!

****

ظلَّ (نادر) يفكر في ذلك الموقف وتلك الابتسامة المستهينة وعبارة (حازم) طيلة الوقت، سرحت به أفكاره وهو يتمشى باتجاه السكن القريب، فلم يتنبه إلا وصوت أجش يناديه ب»يا صاح»!

رفع وجهه عن الطريق الإسفلتي، فأبصره بشحمه ولحمه وحتى سيارته ذات الانبعاج في مقدمتها، (داسم عواد)، كان مرتكنا على المقدمة دون أن يحاول إخفاء أثر جريمته، مرتديا نظارة شمسية سوداء لحسن الحظ!

ترى ماذا يبغي الوغد؟

خلع نظارته لسوء الحظ مواجها (نادر) بمقلتيه الماكرتين المزعجتين، وتقدم وبسمة صفراء تتلاعب بثغره..

- «ماذا تريد؟»

قالها (نادر) محتدا وعلى استعداد لخوض مواجهة أخرى، فلوَّح (داسم) بيديه معا قائلا:

- على رسلك أيها الجريء.. أتيتُ بسلام!

- دعني في حالي..

- كلام قاس لا مبرر له.. كل هذا يصيبني لمجرد التعارف لا أكثر؟ سحقا للدنيا! لا رحمة ولا..

- تعارف؟

وضع الشاب يده على كتف (نادر) هامسا بلزوجة الشيطان عندما يوسوس:

- هنا وفي هذه القمامة المُسماة جامعة.. أنا صديقك الأوحد!

- حقا؟ ولماذا؟

- ما رأيك بغداء على حسابي وبعدها نتكلم براحتنا؟

- هل أنت جاد؟

- أنا جاد دائما مع أصدقائي..

- وأنا.. لستُ صديقك!

قالها مزيحا يده بخشونة، فاكتفى (داسم) بابتسامته معيدا النظارة لعينيه مجددا.. لحسن الحظ!

- «أنت لا تعلم ما سيفوتك!»

- «ماذا؟»

- «الكثير!»

وأعطى وجهه للسماء متأملا قرص الشمس وهو يقول:

- ثمة صديق وصديق، صديق أقرب للعبد يمتلك فكرا متبلدا وذهنا غائبا، سمها معرفة سطحية أو زمالة عمل، لكن ليست صداقة، لا، ليست تلك المرتبة الهامة..

- ومن صديقك بالضبط؟

- من يفهمني! من يقدرني ويدفعني لاحترامه، من يسعه التفوق عليّ

بالتفكير، من يشعرني أنه أهلٌ للثقة وبأنه لا يملك أصدقاء سواي!

- وأنا أمتلك تلك الصفات؟

- طالب مجد في كلية هندسة الحاسوب عيبه الوحيد مصادقته ذلك الفتى صاحب الحرق! يهب دفاعا عن شاب لا يعرفه في وجه آخر يفوقه قوة.. أمر مبهر، أبهرني أنا شخصيا!

- شكرا، والآن اسمح لي، فأنا مرهق وجائع..

- صداقتي تكسبك الكثير!

- مثل ماذا؟

- لنقل.. أرباح مادية ومعنوية! أعمال مشتركة أرباحها مناصفة! لصالح أطراف.. لنقل.. لا تحبذ القانون كثيرا!

- مثل المتاجرة بالممنوعات؟

- صديق بديه! أول الغيث قطرة!

- أجننت؟! إليك عني!

- أعمالنا مربحة حقا، وهي كفيلة بجعلك تبتاع سيارة الأحلام في غضون شهرين فحسب!

ليست تلك بأشياء يعاقب عليها القانون بقساوة لدرجة الإعدام أو المؤبد، إذا كان هذا ما تفكر به يا صديقي!

لا شيء تصنعه سوى المراقبة حاليا، ثم تظفر بنسبة أرباح مغرية! وبعدها يأتي دور العمل الجاد، وسأعلمك كل شيء.. ماذا قلت؟

- سأقولها لك وللمرة الأخيرة.. أنا.. لستُ.. صديقك!

وانسحب مهرولا بذهول مغتاظ..

الفصل السابع

قال الخال (مروان) واضعا سيجارته المهترئة على طرف المنفضة البلورية:

- أواه من أيام الشقاوة الحلوة والدم الحار!

كان (نادر) قد حذر الرجل مرارا من مغبة التدخين المفرط، وبخاصة في السر كي لا تلحظه إحدى الممرضات، لكن الخال (مروان) عشق المغامرة حتى ببدنه الهرم، فاعتبر التدخين وهو بهذه الحال مغامرة لا بأس بها!

- «يقول (فيكتور هوجو): «عندما كنتُ صغيرا تمنيت أن أكون كبيرا، فلما كبرت عاودني الحنين إلى شبابي!»

طبعا لم يجادل (نادر) المغامر المثقف أكثر.. في حين طفق الأخير يراقب بدعة القلق الذي رسم خطوطه على ملامح الفتى..

قال الرجل الهرم متوسدا ذراعيه:

- حين كنتُ بمثل سنك كنت لا أكن ولا أهدأ.. رباه كم كانت شلتنا مميزة! تخطيط دقيق لكل شيء، كما لو كنا عصابة! لم ندع شاردة أو واردة تمر مرور الكرام، لذا كانت مغامراتنا ناجحة دوما!

- أنا لستُ «أنت» أو «أنتم» يا خال، ويلوح لي أنك حظيت بكل المتعة في شبابك..

- أووووه! إنه وهيج الشمعة الذائبة يا فتى! لهيبها مُحمس كلما تأجج!

واتخذ وضعية أكثر راحة للرقاد قائلا بتهكم مر:

- والآن ناولني كوب الماء وحبة الدواء، ودع عجوزا بائسا مثلي لسلطان النوم، لربما تمكنت من استرجاع ذكريات جديدة لهذه الليلة من ماض عشقته!»

لم يدر لِمَ تذكر الخال (مروان) –رحمه الله- وهو عائد من جولته الليلية مع (حازم) من قاعة الحواسيب..؟

كثيرون في عمر الرجل العجوز اعتبروا أفكاره وأفاعيله صبيانية لا تليق بسنه، حتى أصدقاءه الذين شاركوه غالبية تلك المغامرات المثيرة، كانوا يبتسمون في حرج كلما ذكرهم الرجل بالحماقات التي فعلوها في شبابهم عندما يأتون لزيارته في المستشفى..

جمرة تأججت حماسة في جسد الرجل الواهن حتى آخر لحظة من حياته، جمرة حب المغامرة رغم السن والزواج وهيبة الكبار ووقارهم، لكنه اعتبر ذلك كله أقرب للرياء والضحك على الذقون!

****

الساعة الآن التاسعة والنصف صباحا..

لقد أصبح (نادر) مغامرا حقيقيا! يتسلل ليلا إلى قاعة الحواسيب للدردشة مع الفتيات، ويقف نهارا بمواجهة الطلبة الأشد بأسا! حتى انه صار يحضر غالبية المحاضرات متأخرًا..

كان خارجا من محاضرة عقيمة أخرى تمكن من حضورها لحسن حظه، عندما سمع من يناديه، توقف والتفت، فوجد السنجاب قادما! ماذا يريد هذا الآخر؟

- «انتظر يا (نادر)!»

وتوقف هو الآخر، ثم واجهه بنظرات معاتبة قبل قوله بلهجة المعاتب أيضا:

- لماذا تحاول التهرب مني يا زميل؟

- أنا؟

- لِمَ تتنكر لي بهذا الشكل؟ إنهم طلبة السكن - سامحهم الله- أليس كذلك؟

بدا (نادر) متضايقا، لا يجب أن يراهما أحد وخصوصا من طلبة السكن..

تساءل باستياء:
- ماذا تبغي؟
- ما الذي أصابك؟ من تراه وسوس لك ضدي؟
- لا أحد فعل..
- لا أحد؟ تبا لهم من حمقى يتلاعبون بكل طالب جديد! لا تصدق ما يشاع عني يا صديقي!
- وماذا يشاع عنك؟
- افتراءات كاذبة! كلها! على فكرة.. لاحظتُ تغيرا مريبا طرأ عليك، مالك صرت تتأخر عن محاضراتك؟ لا يجب أن يفتر اجتهادك بهذه الصورة المخجلة!
شعر (نادر) بالدم يحتشد في صدغه ضاغطا هنالك وبشدة، فتمتم مغتاظا:
- أتراقبني؟!
- أنا؟ بالطبع لا! كل ما بالأمر أنني أكترث لصالحك، أنا صديقك ومن مصلحتك الإصغاء إلي، وأتمنى أن..
- إليك عني!
قالها دافعا إياه بخشونة جانبا ومواصلا سبيله، كان يجب أن ينادوه بالدبقة لا السنجاب!
ثم تردد تأنيب الضمير الحكيم في عقله، أخبره أن ذلك الأحمق على حق رغم خصاله المزعجة، يجب تنفيذ المهمة التي أتى لأجلها، وهو الآن يهملها لأجل دردشة عقيمة مع فتاة لم يقابلها شخصيا!
ماذا لو كانت فتاته فتى؟ سيصاب عندئذ بإحباط لا حدود له..
صار ينام كطفل عقب كل سهرة، لكنه يصحو متأخرا أحيانا، ويهرع كالأبله بشعر مبعثر ورائحة فم كريهة للمحاضرة، حيث يتابعها بسحنة فارغة من أية تعابير، وبذهن خال من التركيز، كما تتابع المرأة المسنة الصور الملونة المتلاحقة على شاشة التلفاز..

فكر في هذا كله وهو يجلس في القاعة التالية بانتظار دكتور مادة علم النفس كي يتحفهم بترهات لا منفعة منها، وهي مادة خارج نطاق تخصصه، لكنه اضطر لتسجيل مادة حرة لرفع المعدل..

شعر بملل يخنقه وهو ينظر للأسفل قليلا، فوقع بصره عليها، (سوزان) الجميلة، فهي معه في هذه المحاضرة طبعا، لم يطل النظر كي لا تملأ قلبه الحسرة الأليمة..

كانت له عادة مضحكة في تخيل نفسه على علاقة غرامية مع إحدى الفنانات الجميلات، حتى يقرأ أو يطالع في التلفاز نبأ خطبتها أو زواجها، وعندئذ يكف عن مطاردتها بمخيلته باحثا لنفسه عن واحدة أخرى لا تزال حرة! وكانت الحال واحدة مع (سوزان) التي على علاقة متأرجحة مع (آل باتشينو) زمانه!

وعندما فكر بالنهوض والمغادرة موفرا على نفسه عناء التحسر، والإنصات لمعلومات يسهل تداركها من الكتب والمراجع، تفاجأ بكعبين قصيرين يطرقان أرضية القاعة بلطف، ودلفت امرأة شابة ترتدي ثيابا محتشمة وأنيقة، الجديد بالموضوع أنها ترتدي الحجاب! وهو ما لم يره سوى مع عدد محدود جدا من الطالبات..

بنبرة عذبة مطالعة الطلبة والطالبات بوجه بسيط التبرج قالت:

- صباح الخير، اسمي (نسمة) وأنا دكتورة بديلة!

الفصل الثامن

في المكتبة العامة يقضي (نادر) جل وقته بالمطالعة، قرأ قاموسا يخص كليته وبعض القصص القصيرة، لم يحب مطالعة الروايات، فقد كان الأدب بالنسبة له مضيعة للوقت! لا بأس بالمجموعات القصصية، أما الرواية فجهد جهيد لا يستحق إضاعة الوقت لمعرفة حكايا وأحوال أناس من نسج الخيال على مدى مئات الصفحات!

لكن كتابا خلب لبه بالذات، لم تكن رواية، كان معجما يتحدث عن الخرافات التي يعتنقها الشرق والغرب على حد سواء، وقد كان شغفه بمثل تلك المواضيع بالذات، فقرر استعارة الكتاب..

أمين المكتبة ببدلة غامقة وربطة عنق فاتحة، وأحيانا العكس، كلهم بربطات عنق مقلمة أو فاقعة، وبدلات بألوان الصيف أو الشتاء، كأنه محل ملابس رجالية، الكل أنيق بلا موهبة أخرى حقيقية..

بعض الطلبة يتصفحون الجرائد، والبعض الآخر على الحواسيب القليلة التي حملت كلها لافتات بعدم استعمال الإنترنت لأغراض أخرى غير البحث العلمي..

نهض لإعادة الكتب الأخرى التي طالعها إلى أرففها، فتذكر قانون المكتبة المقتضي بترك أي كتاب على الطاولة كي يرجعه أمين المكتبة فيما بعد.. تركها وذهب باتجاه الرفوف المزدانة بشتى أنواع وأحجام الكتب باحثا عن واحد معين، لن يلجأ لأمين المكتبة لأنه بدا كالآخرين ممن يعملون في الجامعة على ألا يعملون!

تنبه لذلك الطالب العاكف على تمزيق صفحات من مرجع طبي ضخم!

كان (داسم عواد) شخصيا! الطالب الضبع الذي وصفه (حازم) بالذئب.. تنبه (داسم) لمراقبة (نادر) له، فاكتفى ببسمة ذات مكر أريب وهو يدس صفحات الكتاب في جعبته، ثم غمز بجفنه الأيسر ورحل!
أكان يراقبه يا ترى؟
فيما بعد علم أن صفحات بصور من مرجع طبي إنجليزي يتضمن دروسا عن المعاشرة الزوجية مفقودة، بالطبع هو يعرف الفاعل!
في الجامعة دكاترة من أولئك الذين يطالبون بالإباحية العلمية في الكتب، وحتى إدخال الموديلات العارية بغرض رسمها! تساءل عما يفعله هنا، هذه ليست التربية التي نشأ عليها، ما الصواب وما الخطأ؟ حقا إن الجامعة عالم آخر، عالم يعج بمقدسات زائفة، العلم المزعوم متفوق على الدين الحنيف بمراحل، (حازم) نبهه إلى بعض الدكاترة.. «انتبه فهذا الدكتور ملحد» و«ذاك أيضا»! تماما كالتحذير من ارتياد مطعم لأن لحومه من الخنزير ومشروباته من الكحول!
صار العلم مرتبطا بالإلحاد! وكأن علماء المسلمين القدامى كانوا ملحدين! مغالطات يتحكم بها أولئك الدكاترة، وهم مجرد طلبة لا حول لهم ولا قوة.. تذكر الدكتورة الجديدة (نسمة)، كانت لطيفة ومهذبة، افتتحت محاضرتها بالبسملة والثناء على نعم الخالق عزوجل، ثم بطلب بسيط وجميل، كل من يجد مشكلة مستعصية فليطلعني عليها وسأشرحها له بالتفصيل.. هكذا وبكل بساطة! تماما كالمدرس الأولي الجليل..
حضر لها حتى اليوم أربع محاضرات، تخللتها ثلاث حالات تأخير من طلبة غيره، لم تصرخ بهم ولم ترمهم خارجا، سمحت لهم بالدخول لأنهم دخلوا وراءها مباشرة، حتى أنها لم تطالبهم بعدم تكرار ذلك لأنها متفهمة لأسباب تأخرهم.. هذه أول دكتورة تمس شغاف قلبه، حبا بالتعليم طبعا وليس لغرض آخر! أم تراه لغرض آخر؟ إن التاريخ يعيد نفسه أحيانا..!

****

في تلك الليلة داخل قاعة الإنترنت التي لم يكف ليلة واحدة عن التسلل لها برفقة (حازم)، تحاور مع (ساندي) عن دكاترة الجامعة وأساليبهم السخيفة في التعامل، فوافقته الرأي من الصميم..

ولما أشاد بالدكتورة (نسمة) خيل له أن رسالة الفتاة قد تأخرت قليلا، وحينما ظهرت وجدها تقول: «يبدو وأنك معجب بها كثيرا!»

لم يتمكن من حظر البسمة عن شفتيه، فقال مركزا بناظريه على الشاشة:

- يبدو وأن (ساندي) غيورة!

أتاه صوت (حازم) بلهفة:

- يا بختك! «قلب المحيط» أعيتني، وبصراحة بدأت أشك أنها فتى!

- حضرت حفل عيد ميلادها؟

- الحفل سيقام الشهر القادم..

- حظا موفقا..

- حدِّث فتاتك عني قليلا، أخبرها عن المتسبب بهذا التعارف الحلو بينكما..

- أخبرتها سلفا!

- هل تمزح أم تقول الصدق؟!

- حقا كلمتها عنك! أخبرتها عن شريك الغرفة المدخن المشخر، والتارك باب دولابه مفتوحا طيلة الوقت!

- أنت تسخر مني! قلت لها ذلك؟

- بكل صدق وأمانة!

- ألا تبا لك!

قالها مقرنا القول بلكمة مداعبة في كتف (نادر)، فتراجع الأخير ضاحكا قبل أن تمسه، فقد صارا يجلسان متجاورين!

وفي درب الرجوع دَنيا من بعض أكثر وهما يتمشيان، فطوَّق (حازم) عنق (نادر) بذراعه قائلا بجذل:

- نحن نِعم الأصدقاء أليس كذلك؟

- بلى..

- يسرني سماعك تقولها!

ثم تغيرت نبرته بعض الشيء كأن عبوسا شابها:

- لا أحسبك تخفي شيئا عني..

- والسبب وراء هذا القول الغريب؟

- رأيتك تحادث (داسم)..

- هو الذي حادثني..

- بخصوص؟

- تصور أن الوغد حرضني على بيع الممنوعات معه في الحرم الجامعي!

- أهي مزحة؟!

- بل هي الحقيقة دونما زيادة أو نقصان..

- يا للوقاحة! الفتى مجنون، لكن لدرجة أن..

- دعك منه فقد رفضت طلبه..

- ماذا صنعت؟

- صحت في وجهه أن يدعني وشأني..

- هددته بالشرطة؟

- لا..

- خيراً صنعت، فأمثاله ممن يضمرون الإساءة حتى تحين الساعة..

- ساعة ماذا؟

- ساعة الانتقام طبعا!

تظاهر (نادر) بعدم المبالاة، وإن غير كلام (حازم) خطبا في نفسيته..

بوغت به يتوقف صائحا باستنكار وذهول وهو يلطم جبينه:

- أوووه يا للغباء المتقع!

- ما الأمر؟

- نسيت هاتفي النقال في القاعة!

- ممتاز! حمدا لله أنك تذكرته الآن، هلم بنا نرجع لإحضاره..
- هلم.. لا انتظر! لا عليك، عد أنت وجهز لنا شايا ثقيلا..
- ألن ننام؟ الساعة الآن الثالثة بعد منتصف..
- سأحادثك بموضوع هام، موضوع خطيير!
- أعطني لمحة!
- عن فتاة!
- فتاة أخرى؟
- أجل! ملكة جمال حقيقية!
- و«قلب المحيط»؟
- لنقل أن الاحتياط واجب!
- رائع! لا أطيق صبرا حتى أسمع كل شيء بخصوصها!
- أنت تتهكم!
- لا طبعا! لِمَ تقول هذا؟
- أتكلم جديا، وسنواصل بعد عودتي، جهز الشاي ومخزون البسكويت الطيب الذي جلبته من داركم..
- وهو كذلك، لكن لا تتأخر أرجوك..
- عُلِم!
وركض مسرعا باتجاه القاعة، في حين رجع (نادر) أدراجه، فولج من النافذة التي تركها مفتوحة لأن باب السكن الرئيسي مغلق، ومشرفه يغط بنوم أعمق من قاع المحيط..
ملأ الإبريق بالماء الساخن ووضعه فوق العين الكهربائية، ثم طفق ينتظر غليانه ورجوع صاحبه مظفرا!
منظر الماء وهو يغلي منظر مسل جدا!
مسل جدا.. جدا جدا جدا..

****

الساعة الآن السابعة صباحا..
حين ينتظر المرء كطالب درس مترقبا أداء الفحص بخوف، أو كموظف استعد ليوم الترقية الموعودة بشوق، يستيقظ بمنبه رباني غامض..
أفاق ليجد عقارب الساعة تشير للسابعة ودقيقة واحدة، و(حازم) لم يرجع بعد..
العين مطفأة والماء لا يزال داخل الإبريق أملا برجوع الفتى البشوش..
ماذا لو أن أحدا كشفه؟ ماذا لو أنهم قبضوا عليه؟
الهاتف النقال! لكن لحظة، كيف يتصل به وهو لا يملك واحدا؟
من الصعب استعارة واحد من الزملاء فالجميع يغط بنوم عميق الآن..
ترى ماذا حدث لك يا (حازم)؟ يا غبي؟!
من سيقبض عليه أصلا؟ دورية شرطة؟ هذا احتمال عسير الوقوع، ترى هل أصابه مكروه؟ لكن كيف؟ ما نوع المكروه الذي يمكن حدوثه؟ لو أن أحدا كشفه لعاتبه وسمح له بالرحيل بعد أخذ بيانات بطاقته الجامعية، وجلبه صباحا إلى مكتب المدير أو العميد عن طريق استدعاء رسمي، هذا كل شيء..
ارتدى ثيابه على عجل، الساعة الآن السابعة والربع، خفَّ للجامعة فوجد عددا لا بأس به من الطلبة قد حضروا، حتى عامل النظافة أتى بممسحته العريضة المبلولة..
لمح هاتفا نقالا في يد أحدهم، لا مناص من بعض السماجة الآن.. أتسمح لي باستخدامه دقيقة واحدة؟ لا بأس؟ شكرا جزيلا! الدنيا لا زالت بخير!
هاتفه مغلق أو خارج نطاق التغطية، الرسالة المستفزة إياها.. شكرا لك!
لا شكر على واجب! أزعجناك! لا مشكلة!
لربما يتحتم عليه بدء الثقة بمن يحملون هواتفهم بأياديهم! بعضهم فحسب! ويواصل الركض..
ركض حيث قاعة الحاسوب، لربما ولسبب ما علق (حازم) بالداخل، خانته النافذة مثلا، فكرة سخيفة لكن عليه التأكد، بالطبع بابها مغلق بالمفتاح، لكنه تأكد من المقبض بإدارته..

فوجئ به يُفتح، أحدهم بالداخل، ربما الشخص الذي قبض على (حازم)، وهو الآن قابع معه بانتظار الشريك الذي أتى إلى مسرح الجريمة بقدميه!

تنفس عميقا ودخل..

لا أحد!

تنفس الصعداء وخرج.. لا.. عاود الدخول.. الذاكرة الفوتوغرافية التي يتمتع بها لا تخيب، مسألة الرياضيات التي على اللوح، الليلة الماضية لم تكن موجودة لدى تسللهما..

تفكر هنيهة قبيل ابتسامته، يا للسخف، الباب مفتوح والذي فتحه خطها على اللوح طبعا، لماذا وهذه القاعة للحاسوب وليست للرياضيات؟ وما شأنه هو؟ فليخط رسمة لبيكاسو! لا شأن له سوى بمكان (حازم) الراهن! ربما رجع للسكن؟ الآن؟ سيقتله لو فعل! جاء للبحث عنه هنا كي يغافله الماكر ويرجع! مزحة؟ ربما! (حازم) من النوع الذي يفعلها ثم يضحك ملء فمه!

استدار، فلفتت أنظاره تلك البقعة، مستنقع أحمر اللون.. طلاء؟ ما الذي أتى به؟ هذه قاعة الحاسوب، لا قاعة كلية الفنون الجميلة!

بدن هامد فوق البقعة الدموية؟! ما الذي أتى به؟!

هذه قاعة الحاسوب.... لا غرفة تشريح كلية الطب!!

الفصل التاسع

أفاق من وقفته المترنحة على صيحة أنثوية شنعاء..

لم يكن نائما، كان في غيبوبة يرى من خلالها الصور مقوضة.. صورة دم، صورة جثة، صورة قميص ملوث ممزق، صورة أحشاء شبه مبعثرة، صورة قناع من الدم الجاف حتى استحال على الفم والذقن سوادا كالسخام..

عدد من الطلبة يدلفون، كلما دخل واحد شهق، كلما دلفت واحدة صرخت..

رفع وجها متيبس التعابير، وبتؤدة غمغم:

- استدعوا الشرطة!

شهقات! صراخ! ألا تبا لكم! ألا ترون؟ صديقي صار جثة! شريكي في السكن صار جثة! تحركوا عليكم ألف لعنة! افعلوا شيئا!!

عميد كليته يدلف، يبهت، الملف الذي بيده يسقط أرضا فتتبعثر أوراقه، بعقيرة نصف مرتفعة - وشبه مرتعشة- يصيح كمن أصابه مس:

- استدعوا الشرطة حالا!!

تماما!

أغمض بصره بغم.. هذه مزحة، (حازم) يحب المزاح، ونحن لسنا في زقاق خلفي بإحدى الولايات الأمريكية العنيفة كديترويت، لا أحد يفعل ذلك في الحرم الجامعي، هذه مزحة سخيفة..

- «انهض يا بني..»

امتثل للأمر، لا غبار عليه لأنهم رأوه وهو يدلف، قد يكون للشرطة رأي آخر عندما يأتون، قد يصير مشتبها به.. لِمَ لا؟ القتيل الراقد كضفادع التشريح صديقه، شريكه بالسكن.. رباه! رباه!!

تقيأ بعنف، فتراجعت الآنسات بذعر، طلب العميد خروج الجميع، فقد أعصابه فنعتهم بالأوغاد الملاعين! لم يعد متحضرا، عاد وحشا بدائيا ينشد أمنه وسلامته ولو استلزم ذلك ارتكاب جريمة أخرى..

بكاء، دموع غزيرة، متى آخر مرة بكى فيها؟ ولا مرة؟ معقولة؟ أهو متبلد عديم الإحساس إلى ذلك الحد؟ أمر لا يصدق..

ماذا يحدث هنا؟!

- «هوِّن عليك يا بني..»

العميد انقلب أبا عطوفا، إذاً فهو إنسان إلى جانب بدائيته، وجد (نادر) نفسه ممسكا بتلابيب الرجل كأنها طوق نجاة، ومن ثم احتضنه، فشعر بأصابع تربت برفق على كتفه..

- «هوِّن عليك..»

****

عندما حضر رجال الشرطة لم يعاملوه بذات الرفق..

سألوه كل الأسئلة المألوفة وغير المألوفة، اسمك؟ سنك؟ كليتك؟ مدى علاقتك بالقتيل؟ أين كنت ساعة وقوع الجريمة؟ متى أول مرة؟ متى آخر مرة؟

أما السؤال غير المألوف فكان كالتالي: «هل هذا خطك؟»

نظر بحيرة وتساؤل للوح حيث المسألة المدونة.. الجذر التربيعي للعدد 1 ضرب .. كسر 3.. والإجابة = 45 ؟!

بذهن مشتت وبضياع أشد تمتم:

- لا!

في ذلك اليوم فتشوا الغرفة في السكن وأحرزوا جميع متعلقات القتيل، وهكذا تحول (حازم) إلى ملف آخر مغبر في قسم الأدلة الجنائية..
سمح له رجال الشرطة بالمغادرة، ففعل وسط عشرات الأعين المتربصة به، صار نجم حفل حقيقي، الكل يتأمله بذهول، هذا هو القاتل حتما!
لست أنا، لست أنا يا حمقى!
(سائد) يراقبه باستنكار مع شلة الأنس التي وقفت كأن الطير على رؤوس أفرادها، (سوزان جميل) غطت ثغرها الجميل بأناملها، وصديقها (آل باتشينو) يستغل الفرصة السانحة ليطوقها بذراعيه متظاهرا بالتفهم..
(سامي جليل) كابتن فريق السباحة مفغور الفاه، والسنجاب يؤرجح رأسه يمنة ويسرة متظاهرا بالأسف..
حتى الدكتورة.. ماذا كان اسمها؟ أجل، (نسمة)، نظرات الأسى تملأ وجهها المليح، حتى كاد يقسم إنه قرأ دموعا في مقلتيها..
ثم أبصره.. يقف كالعادة بانزواء، وابتسامة جشعة تتبدى في خطم الذئب وعيون الضبع!
رمق (داسم عواد) بنظرات كره مبين، فهرش الأخير ذقنه باسما بمكره الأريب.. إذا كان ثمة قاتل واحد فهو أنت حتما أيها البغيض!

****

خارج أسوار الجامعة ترك لنفسه حرية التعبير أخيرا بعد جهد جهيد بذله ليبدو متماسكا.. صار ينهنه بطريقة ولا أغرب، نبش جيوبه باحثا عن آثار دم، أو بعض الأحشاء المندلقة ربما دُست بالخطأ هنالك!
- «ماذا فعلت يا (حازم)؟ كان مجرد هاتف نقال نسيته يا مغفل! كيف تمكنوا منك وأنت الخبير؟!»
الشاي! كنا سنشربه معا! ماذا سأقول لساندي؟ ماذا أخبر «قلب المحيط»؟!

كان الفتى اللطيف صاحب الحرق هدافا ومدافعا بارعا رغم أنه مدخن!
كان أول من علمه طريقة استخدام مواقع الدردشة، كان..
شدَّ شعره بعنف حتى كاد يقتلع بعض خصلاته، ثم مضى بخطا مترنحة إلى السكن..
ثمة شخص يراقبه من بعيد، شخص مدخن يراقبه باهتمام، إن لم يكن الطالب الغامض خفيف الشعر مضمد القبضتين فمن يكون إذاً؟
المشرف اصطاده.. ماذا حدث يا (نادر)؟ يقولون إن (حازما) قتل! كيف قتل ومن الذي قتله؟
إليك عني يا كهل الشؤم! لست أنا من قتله! تريد قاتله؟ اذهب وابحث عنه بعيدا عني!
والشباب يطوقونه بازدحام خانق كريه، يمطرونه بوابل من الأسئلة الصحافية.. أين؟ كيف؟ لماذا؟ إن؟ أن؟ كي؟ إذن؟ قد يستخدمون أخوات كان أيضا لتعديد مثالب الفقيد!
دعوني أنام.. أرجوكم دعوني أنام!

الفصل العاشر

قال لها الخال (مروان) بعتاب طفيف:

- لقد أخطأتِ يا بنيتي..

والدة (نادر) تجالس خالها المريض، دون أن يدريا أنه واقف بالقرب من الباب كي يتنصت على ما يقولانه عنه..

سألته المرأة بحزن:

- أليس من حقي أن أخاف عليه؟

- بل من حقك أن تموتي خوفا عليه، لكنكِ يا بنيتي تتناسين دوما أن (نادرا) – ما شاء الله- قد صار رجلا، إنه ليس ذات الطفل الذي علمناه بأن أخذ السكاكر خلسة من البقالة حرام!

- دائما أراه ذات الطفل..

- يا بنيتي، أنتِ لا تدركين العالم الخارجي تماما لأنكِ بلا أنيس سوى ولدكِ الذي شاهد وتعلم وعرف ليصير رجل البيت باكرا، فكيف تعاملينه بعد هذا كله بتلك الصورة المخجلة؟

أتفهم خوفكِ عليه، لكنه قد يعتبر ذلك ضعفا أنثويا يطارده في كثير من الأحيان، الأسلوب الأمثل معاملته ومخاطبته كصديق قديم، ما أجمل أن تكون العلاقة بين الكبار وأولادهم كتعامل الأصدقاء مع بعضهم البعض! هكذا تتأصل الثقة فيما بينهم فيصيرون صريحين دوما، وبذلك نضمن

صدق كلامهم ونثق به دون شكٍ أو خوف..

- أنا أثق بولدي، وهو يثق بي!

نطقتها بعصبية متحفزة وهي تنهض متأهبة للانصراف..

إذاً أنا رجل، العم (مروان) أقر لي بالرجولة!

فماذا يصنع الرجل إذا ما وجد صديقا له وقد أضحى جثة مبعثرة الدم والأحشاء بفعل فاعل؟

أفاق بجفنين ذابلين وبصيرة مبلبلة..

تلفت حوله ليجد نفسه وحيدا في السكن، فراش (حازم) يخلو منه، فهبَّ من رقاده بفزع مرتديا ثيابه كيفما اتفق.. شعر بأزمة في مثانته، لكنه زاد من عذابها مسرعا نحو مبنى الجامعة..

الرواق ساكن إلا من طالب يطالع ملاحظات اتحاد الطلبة الملصقة بدبابيس ملونة على الجدارية، لم يره من قبل، لم تبلغه الأخبار بعد وإلا لراقبه بنظرات مرتعدة ولسان حاله يقول: «أرجوك لا تؤذني! أنا لم أر شيئا!» مرَّ بقاعة، فوجد عددا من الطلبة ينصتون بضجر لمحاضرة دكتور مادة ما: «وجه الخطأ هنا متمثل في الإتيان بواو العطف قبل المعطوف الأخير».. مادة اللغة العربية إذاً.. طالب يطالعه بحيادية ملولة رغبة منه بقتل الوقت لا أكثر.. قاعة الحاسوب، الباب مفتوح، لا أشرطة صفر دالة على أن المكان مسرح جريمة يُمنع ولوجه، دلف مسرعا ومثانته آخذة بالأنين، فوجد عددا من الطلبة والطالبات على الحواسيب، بقيادة مايسترو المادة الذي طالعه باستغراب:

- «أنت معنا؟»

طالع البقعة حيث قتل (حازم).. طالع باستنكار.. نظيفة تبرق كأفضل ما يمكن! أهي مزحة لعينة؟ كيف انتهى التحقيق بهذه السرعة المذهلة؟!

الوجوه تراقبه باحثة عن ثغرة تسلية، والدكتور يكرر بصرامة عاتية:

- إذا كنت معنا فاخرج إذا سمحت، فانا لا أسمح لطالب بأن..
- جريمة القتل!
- ماذا قلت؟
- ألم تقع هنا.. جريمة قتل؟
- مسطول أم ماذا؟
وهنا هجم (نادر) على الرجل، فقبضه من ياقته صارخا في وجهه بغضب عاصف أعمى:
- سألتك سؤالا!!
- استدعوا رجال الأمن! هذا الفتى مجنون!!
الإثارة ملتمعة في أعين الطلاب، فضلوا عدم التدخل وإن هبَّ بعضهم على أقدامه تحسبا لأي طارئ، فرصة سانحة لنيل رضا الدكتور وللنيل منه كذلك!
و(نادر) لا زال يصرخ حتى تطاير لعابه:
- ألم يقتل (حازم) هنا؟!
ونظر للطلبة صارخا بثورة جنونية:
- ألم تشاهدوا الجثة؟!
الفتيات يغطين أفواههن بذعر خالص، والفتيان يتراجعون برهبة وخوف عادلين عن نجدة دكتورهم.. كان هذا عندما دلف رجل أمن مسرعا ليقبض على كتف الفتى قائلا له بحزم:
- أنت!
تلقى صدره ضربة جعلته يئن، لكن (نادر) لم يلذ بالفرار، بل هدأ قليلا منتظرا الرجل المتشبث بصدره.. أخيرا سكنت آلامه قليلا، فهمس بنبرة مختنقة ملأى بالتهديد:
- تعال معي!
استسلم (نادر) وخضع، فسار مع الحارس متجاهلا النظرات المقبضة التي

تتهمه بالعته المطبق.. استقلا مصعدا من المصاعد، وبإبهامه ضغط الرجل زر رقم الطابق المحرم!

المدير! لا أحد يقابله سوى المؤهلين للطرد، لن ينظر في أمره حتى، لقد انتهى أمره، المدير ليس مجرد عميد سيقوم بإنذاره آخر مرة، لقد ضرب حارسا واعتدى على دكتور في محاضرته.. الطرد حتما ما ينتظره..

توقفت السكرتيرة العذبة كماء السلسبيل عن مكالمة ضاحكة مع إحدى صديقاتها، ربما صديق.. أومأت لهما برأسها قبل إنهائها المكالمة وغيابها داخل حجرة الرجل الهام..

أخيرا خرجت قائلة بلطف:

- سيقابلكما الآن!

هكذا دخلا صومعة الكاهن الأعظم، صومعة فاخرة حقا، مناسبة لمكتب واحد من أغنى أغنياء رجال الأعمال، حاسوب نقال مفتوح وهاتف جوال مدسوس داخل جهاز إعادة شحن البطارية، لا ملفات ولا غبار، السطح الزجاجي لمكتبه بلا ذرة غبار واحدة، لا أوراق ولا أقلام حتى..

لم يرحب بهما، بدا منشغلا تماما بتغميس كيس الشاي داخل ماء القدح الساخن، بإصبعين أمسك الخيط متابعا وبحذر العملية كأن الزمن طوع أمره، كل هذا الحرص لجعل الشاي متوازنا غير داكن، يتأرجح ما بين الخفيف والثقيل..

- «بإمكانك الانصراف..»

لم يحدد من بالضبط، لكن الحارس خرج من تلقاء نفسه، عالم يفهم أفراده بعضهم بشكل جيد، كذا فكر (نادر) بلامبالاة، يا للخواء العجيب! ماذا عن مستقبله؟ لماذا ينتابه شعور عنيف بعدم الاكتراث؟

أخيرا توقف الرجل عما يقوم به، شعره بني خفيف ونظارته ضئيلة فضية، وسيم إلى حد ما، أربعيني، أنيق الهندام لحد بعيد، وقد ارتدى ربطة عنق

رمادية مزدانة بأشكال تجريدية..

- «أتعرف الإجراء المتخذ في حال تعدي طالب على دكتور ومن ثم رجل أمن؟»

تفكر هنيهة، هذا الرجل غير غافل عما يدور، والأدهى أن المعلومات تبلغه بسرعة التلكس! من تراه أخبره بتلك السرعة المذهلة؟ أيسمحون للسنجاب بمقابلة المدير يا ترى؟

- «لا..»

- «الطرد لا محالة! والآن أسمعني عذرا وجيها قبل قيامي باتخاذ الإجراء..»

- «ماذا حلَّ بقضية (حازم)؟»

نفخ على البخار المتصاعد من القدح بروية متسائلا:

- لم أكن أعلم بوجود قضايا مرفوعة! نورني هنا!

- أتحدث عن الجريمة التي وقعت في قاعة الحاسوب..

- جريمة؟ أهذا كل ما بالموضوع؟ تريد رفع قضية على المدعو (حازم) لأنه سرق شيئا يخصك أو عبث مع زميلتك التي تزعم حبك؟

هذه جامعة يا بني وليست..

- أتحدث عن جريمة قتل!

تنهد ببسمة لاحت كشبح على ثغره الضئيل، هذا الرجل قلما يبتسم! وببنصره حكَّ خده متسائلا:

- جريمة قتل؟ هنا؟ ومن دون أن يصلني شيء عنها؟ أتمازحني يا بني؟

- لِمَ تحاول إخفاء الحقيقة عني؟ (حازم) كان صديقي وأنا مستعد لكتمان السر..

- عن أي سر تتحدث يا بني؟ هل أنت مريض أم ماذا؟

- سأمرض إذا ما واصلت تكتمك على الأمر! أنا أؤكد لك أن صديقي وشريكي بالسكن قد قتل! قتل البارحة في قاعة الحاسوب!

- ما لك تتلوى هكذا؟ أأنت معتوه أم ماذا؟

- لا ولكن.. أنا بحاجة لدخول الحمام!

تغيرت نظرة المدير له حالا متهمة إياه بالجنون الأكيد، فضغط (نادر) أسنانه بهمس معتصرا أطرافه:

- (حازم نافع)، غرفة رقم (13) في سكن الجامعة، أقول لك إنه شريكي بالغرفة، وأؤكد لك أنه مات مقتولا!

- اهدأ يا بني وأنصت، سأتأكد من الموضوع، حتما سأفعل، اذهب الآن قبل أن تنفجر!

- يجب أن تبلغني..

- سأبلغك! ارحم نفسك واذهب!

لقد صدم الرجل! أنساه تماما موضوع التعدي على الرجلين وجعله أكثر انشغالا بقضية غرائبية.. أين الحمام؟ أين الحمام؟!

الفصل الحادي عشر

المدير حسبه مجنونا وكله بسبب مثانة ملآنة.. يا للخزي!

هل يأخذ شكواه على محمل الجد؟ يجب أن يفعل، أي مدير هذا الذي لا يدري شيئا عن وقوع جريمة شهدها العميد وعشرات الطلبة والطالبات؟ بل إن رجال الشرطة أتوا وعاينوا موقع الجريمة، سألوه عشرات الأسئلة وحملوا الجثة معهم..

كل ذلك وقع والرجل مشغول بتغطيس كيس شايه اللعين في قدح الماء المغلي؟! يا له من مدير! إلا إذا..

فكر وهو عاكف على غسل يديه من صنبور الماء الساخن.. إلا إذا أراد التعتيم على ما وقع حفاظا على منصبه، فكرة غير منطقية بالمرة إذ ثمة شهود، لكنه لم يجد متنفسا إلا من خلالها..

ثم الجريمة المرتكبة، تفوح منها رائحة القتلة المتسلسلين النتنة! القاتل دوَّن مسألة رياضيات - ماذا كانت بحق الله؟-، ربما ذات المسألة التي أزاحته عن درب النجاح في الامتحان، فصارت علامته التجارية التي يخلفها أثناء القتل!

بدا وكأنه يسخر من نفسه.. ما تلك الأفكار المنبعثة من رأسه؟ كل فكرة أحمق من سابقتها؟ ألم تتلاشى الصدمة بعد؟ (حازم) قتل، وأقل ما بإمكانه فعله هو التفكير بصورة منطقية..

البارحة لم يحضر محاضراته واليوم كذلك لن يحضر، أفكاره تسممت فلم يعد ذهنه حاضرا لتلقي معلومات جافة، إلا إذا كانت متعلقة بالجريمة المروعة التي وقعت.. أحشاء ودم! أكان ذلك حقيقيا؟ أحشاء ودماء حقيقية؟!

تذكر فجأة ابتسامة (حازم) الطفولية ومرحه، فارتعشت شفته السفلى، قلبه مفعم بالتهدج، ولو كانت والدته هنا لارتمى في أحضانها منتحبا..

****

في السكن الكل يقوم بالهراء المعتاد.. لا شيء! أو بالأحرى أشياء لكنها سقيمة.. عدد منهم حاولوا قلب ماكينة شراء الحلوى لشعورهم بالجوع! المصروف فرغ على مراهنات لعبة الورق، أو السجائر ومشاوير الليل في أفئدة المواخير المعتمة..

كانوا منهمكين لدرجة عدم التنبه لنجم مثله، البارحة حاولوا استنطاقه بشتى السبل والوسائل، أما اليوم..

الحق معهم فالجوع كافر، لكن شيئا بين ثناياه ضايقه وبشدة، بل وأقلقه، ربما لو تصرف قليلا من تلقاء نفسه..

- «مساعدة يا شباب؟»

- «إليك عنا!»

ردٌّ مفحم، لابد وأنهم جوعى بحق.. (وسام)؟!

رآه من بعيد يخفُ مسرعا باتجاه غرفة التلفاز، فأسرع خلفه صائحا:

- (وسام)! انتظرني!

- أهلا! أرغب بحجز التلفاز لمتابعة فيلم عربي قبل أن..

- أجل أجل، أخبرني، هل سمعت بما حدث؟

- ماذا حدث؟

- ألم تفتقد (حازم)؟ اسألني أين هو..

- كيف أسألك عن شخص لم أسمع به؟ من يكون (حازم) هذا؟
- لا تمازحني في هذا الموقف العصيب..
- أنا.. لا أمازحك!
تبدت نظرة مفعمة بالتحدي الغاضب في عيني (نادر)..
- «ولا أنا.. بهذه السرعة نسيته؟ كم من مشاكسات دبت بينكما لأجل فيلم، كان له في هذه الجهة من العنق وعلى الجبهة حرق بليغ نجم عن..»
- «كفَّ عن الحمق أرجوك، وهلم معي لمتابعة الفيلم..»
سدد بنظرات ملؤها الاستنكار، ثم همس بامتعاض ضاغطا حروف كلماته ببطء وخواء:
- أيها اللعين!
- ماذا قلت؟!
وفي الثانية التالية وجد (وسام) نفسه ملتصقا بالجدار ولعاب (نادر) يغمر وجهه:
- كيف تنكر وجود (حازم) أيها اللعين؟!
- أنت مجنون! مجنون!!
- بل أنت!
- «ماذا يحدث هنا؟!»
المشرف الكهل أتى على صوت الصراخ، تفاجأ لرؤية أكثر شابين مهذبين يقتتلان على هذا النحو، هاله الأمر لدرجة أنه قال مستنكرا:
- أنتما؟!
صاح (وسام) والعرق يبلل عنقه:
- هذا الشاب مجنون!
- بل هو المجنون! إنه ينكر (حازم)! شريكي المغدور!
لوَّح المشرف بيدين مهدئتين قائلا بحذر:
- اهدأ يا بني وأطلعني بروية على ما حصل..
- (حازم)! صديقي وشريكي بالغرفة قبل أن يقتل! هذا اللعين ينكر معرفته به..

- بروية يا بني بروية! عن أي (حازم) وقتل تتحدث؟ أنت تسكن لوحدك حتى نأتيك بشريك، لا يوجد طالب عندنا باسم (حازم)!

أفلت (نادر) زميله ببطء المصعوق، لابد وأنهم يسخرون منه.. يحاولون إثارة جنونه لسبب ما، يا لهم من شياطين!

- «حتى أنت تقول ذلك؟»

قالها مكابدا دموعه الموشكة على الانهمار كزخ المطر، تهاوى ببطء أرضا وقد عجز عن التقاط الهواء.. عدد من الشبان يدلفون مسرعين لرؤية ما يحدث، ميز من بينهم سنجاب التقارير اللعين..

- «ماذا يحدث؟ مشاجرة؟»

تطوع (وسام) بالإجابة حانقا:

- لا شيء سوى طالب مجنون يعيش هلاوس حمقاء!

- طالب مجنون؟

نطقوها باستمتاع وعيونهم البغيضة ملأى بالرغبة، رغبة رؤية شيء خارق للعادة اسمه الجنون، ينبعث من عرش الشر ليدمر حياتهم الهانئة!

قال المشرف مراقبا الفتى المتهاوي:

- يقول بأن لدينا طالبا باسم (حازم)، يقول إنه كان شريكه بالسكن قبل أن يقتل! اللهم إلا لو كان متسللا من وراء ظهورنا!

متسلل؟ لا، حتى أنت كنت ترانا معا، بل ووقفت ذات مرة تعاتبنا معا على ترك مياه صنابير الحمام مفتوحة رغم أنه لا علاقة لنا بالموضوع!

يا لك من كهل مخرف!

همهمات تتصاعد، الشباب يتهامسون، يتهامسون وأبصارهم متشبثة بتقاسيم (نادر) باحثة عن تعابير جنونية مسلية.. في تلك اللحظة أخذ يفكر مبهوتا.. ماذا لو كنتُ مجنونا؟ كلهم يزعمون أنني كذلك، إذاً لابد وأنني مجنون بالفعل!

نهض ببطء وروية، شعوره كمن صدمته مركبة، كان ذاهلا عما يدور حوله،

بخطا مترنحة سار صوب غرفته والنظرات الكريهة تقذف ظهره بسهام نارية..
دخل الغرفة، فكان أول ما فكر به هو رجال الشرطة الذين أحرزوا كل متعلقات الفتى وأخذوها معهم، أكانوا من نسج خياله أيضا؟
خلع سترته وتعبير الإصرار مرتسم في ملامحه، ألقاها كيفما اتفق على السرير وشمَّر عن ساعديه، ثم ابتدأ مرحلة التنبيش وبعنف.. عن ماضي (حازم) معه! سروال، حذاء، حزام أو قميص، عقب سيجارة، أي فتات يخص الفتى..
فتش في كل شبر وزاوية من الغرفة.. كان يفكر بالعقاقير التي أجبروه على تناولها.. أجل! إن له تاريخا أسودًا مع الوصفات الطبية، كيف لا وقد..
أوقف استرساله في تلكم الخواطر المؤرقة مُطالعا رسغه، حيث طوَّقه بساعته الرياضية العريضة مخفيا..
بدا شاردا..
أنا طبيعي وسأظل! لا تصدق كلامهم، هم المجانين لا أنت، (حازم) لم يكن مجرد خواطر أو ذكريات في مفكرة، الفتى المرح الضحوك كان من دم ولحم، حتى أنه قابل والده الكهل الأصلع! الرجل كان يحمل هاتفه بيده! ترى لماذا لم يظهر الرجل لغاية الآن؟ إن ولده مقتول بحق الله!!
آه لو يتمكن من الوصول إليه! دعني أخبرك يا سيدي عما يظنونه بولدك! يحسبونه شبحا بلا كيان! ولدك قتل والجميع يخفون حقيقة ما وقع يا سيدي! بحق الله أين ذلك الأب الذي لا يثق بأصدقاء ابنه؟ ألم يقل إنه سيحضر كل أسبوع لمعاينة هذه الصداقة الجديدة ورؤية نتائجها؟ سلبياتها وإيجابياتها ؟!
بحث بجنون، الأرفف خرجت والملابس استخرجت، لا شيء يمت بصلة لحازم، كل المقتنيات تخصه هو فحسب، الأوغاد أخذوا كل شيء! الأوغاد أخذوا..
أخيرا كفَّ عن البحث..
تأمل السقف لاهثا.. العرق يغرقه تماما، وعضلاته منهكة وبشدة..
أنصِت لصوت العقل الذي خذلك مرة، لعله لا يفعل المرة القادمة!

الفصل الثاني عشر

لكل جواد كبوة كما تذكرنا أقوال العرب المأثورة..

في الأسابيع التالية بدأ ينهض من كبوته، نفسيته تهدأ، وإن شابها توتر وقلق، فقد ابتدأ بتذكر المهمة التي لأجلها أتى هنا، يجب أن يرجع لوالدته بشهادة كي يخفف عنها بعض أعباء الحياة..

انصرف لمذاكرته، زار المكتبة حيث انشغل بتصفح بعض المراجع، وكتابة ما استقاه منها للإفادة في دراسته..

كان يبحث عن النسيان، حتى أن الطلبة ساعدوه بذلك، لا أحد منهم يذكره بجنونه، لم يحدث أن اعترض طريقه واحد منهم كي يسخر منه أو من صديقه الخيالي القتيل، حتى (سائد) وشلته الذين على علم بالموضوع بدوا وكأنهم قد تركوه بحاله..

إذاً.. عودة للمحاضرات المضجرة، ومحاضرة الدكتورة (نسمة) المستساغة، لدرجة أنه عندما حضر لها أخيرا بعد غياب دام مدة، تركته يدخل – رغم تأخره نصف ساعة كاملة- متمتمة بابتسامة دون النظر إليه:

- افتقدناك!

ارتخت عضلاته قليلا، دعوة منها للاندماج في الحياة.. المرأة اللطيفة كانت شاهدة على وقوع الجريمة، لكن لا، لن يكلف نفسه عناء سؤالها، بل سيبدأ من جديد.. الأمور على حالها في الكافيتريا ، (آل باتشينو) لا زال يغازل ويمازح (سوزان)

على مرأى ومسمع الكل، (سامي) كابتن فريق السباحة لا زال على عاداته الصبيانية بارتداء كل ما بإمكانه كشف عضلاته ذات الأوردة المتنافرة..
الشاب الغامض صاحب الصلعة الخفيفة، يدير قدحا على الطاولة بقبضتيه الملفوفتين بالشاش الطبي، فتذكر (نادر) ملاحظته ، أمر مريب يدعو للشك..
هذا الشاب يقف ويسير ويجلس دائما في ذات الأماكن وبمواعيد محددة، الساعة العاشرة في الكافيتريا على ذات المقعد شبه المنزوي بالركن، في الحديقة الساعة الثانية ظهرا بالقرب من شجرة وارفة الظلال، أما الرابعة عصرا فتراه شبه ملتصق بأحد أعمدة المباني المتعددة، ذات العامود القريب من قاعة مبنى كلية الإعلام، العامود الثالث!
أما (داسم عواد) فمكتفٍ بمراقبة مكشوفة وابتسامات ماكرة موزعة لا تفرغ، في كل حين وفرصة يرفع يدًا أصابعها متشبثة بسيجارة أو علبة «ريد بول» محييا كما لو كان يسخر منه، أراد الدنو منه وافتعال مشاجرة، لكنه دائما ما يجد الأمر غير مستحق لتوقيع تعهد مجازفا بمستقبله مرة أخرى..
أحيانا يخرج ليلا للتسكع بمفرده، يرافقه أحيانا طيف (حازم) بذكريات مفعمة بالحيوية، ذكر تفكهه وحبه للنكات والطرائف..
تذكر مغامرتهما معا في قاعة الحاسوب، ليلا ودون علم أحد..
منذ مقتل صاحبه الخيالي لم يجد في نفسه الجرأة على الوثب لاستعمال الحاسوب، لكنه الليلة سيفعل، فقد اشتاق للمغامرة والمحادثات الليلية الساكنة مع (ساندي)، وهو ينصت إلى ألحان (مارسيل خليفة) وغناء (فيروز) و(أميمة)..
هكذا لم يُضع مزيدا من الوقت، خفَّ باتجاه القاعة، وبعد تفقده النافذة وجدها على حالها..
وثب عبر النافذة وهو شبه موقن من أن أحدا لا يراقبه، وعلى ذات

الحاسوب الذي اعتاد استخدامه جلس.. تشغيل، أدخل الرقم السري، ابحث عن موقع الدردشة المعتاد، ابحث عن (ساندي).. (ساندي) غير موجودة، انقطع عنها مدة ليست بالطويلة، لابد وأنها احتسبتها طويلة بعض الشيء، بل أطول من المعتاد، ربما تركته باحثة عن شخص آخر مستعد للإصغاء إلى معاناتها في نيل رخصة القيادة..

- **«اشتقت إليك!»**

اسمها يبزغ بغتة من العدم! (ساندي)! **«اشتقت لكِ أيضا!»** بأصابع مرتعشة وشعور طاغ بالتهدج يطبع حروف كلماته.. **«أين كنتِ؟»**.. **«هنا وهناك!»**

أخذهما الوقت وهما يتسامران كعاشقين التقيا بعد فراق طويل، كانت تطبع جملا طويلة وترسلها، فيندهش من تلك السرعة المذهلة..

- **«على فكرة، (الأمير الأزلي) يبلغك تحياته..»**

ضغط زر «إدخال»، ثم شبك أصابعه ببعضها منتظرا بفؤاد خافق بعنف نتيجة هذه المحاولة اليائسة..

كأن الرد تأخر هذه المرة؟

ثم: **«الأمير الأزلي؟ من يكون؟ صديق لك؟»**

تنفس بعمق وروية قبل ظهور تلك الابتسامة على شفتيه، يا للجنون الذي عايشته! أتمنى لو أخبركِ يا عزيزتي بالذي حصل، لكنني غير مستعد لتقبل اتهام جديد بالجنون، وخصوصا منكِ!

- **«لا عليكِ، إنه مجرد صديق..»**

- **«وهل تخبر أصدقاءك كلهم عن أحاديثنا؟»**

- **«كوني أفاخر بها!»**

- **«كلام معسول!»**

الجو يصفو والحياة ترجع! (أميمة) تزيد من الصفاء والرومانسية بعقيرتها

العذبة عن العصفور الذي طل من الشباك، ذكرى صديقه الشبح لم تغب، هاهو ذا يتعلم منه!

استغرق في حديث ممتع معها حتى الواحدة من بعد منتصف الليل، لا زالت مترددة بشأن اللقاء، لكنها تشعر أنها تثق به، كان بحاجة إلى حديث طويل مع أنثى، لأن الذكور لا يتمتعون بذلك اللطف الرقيق والتفهم البارع.. كان موشكا على إنهاء المحادثة اللطيفة، فالوقت متأخر والمحاضرات بانتظاره غدًا.. لولا ظهور اسم مباغت جعله يجفل قبل دفع فرائصه للارتعاد.. كان الاسم يخص فتاة تدعى «قلب المحيط»!

الفصل الثالث عشر

القلم بين أنامله، يقلبه بحنكة وذهنه شارد تماما رغم أن المحاضر كان الدكتورة (نسمة)..

الليلة الماضية لم يذق طعم النوم، وكيف يفعل وقد اكتشف أخيرا أنه ليس مجنونا؟

«**أنت صديق الأمير الأزلي أليس كذلك؟**» تذكر السؤال الذي زلزل كيانه وزاد من دقات قلبه، لدرجة أنه ارتعد خوفا من أوهام جديدة.. لكن لا، الشاشة أمامه ليست وهما، والحروف المرتسمة عليها كونت جملا منطقية، ثمة خديعة في الموضوع، أحدهم يعابثه محاولا دفعه للجنون!

«**كيف تعرفتني؟**»..

«**الأمير حدثني عن الجانب المعتم كثيرا، أخبرني أنك صديقه الأفضل!**»

بوركت يا (حازم)! بقصد منك أم بدونه أثبت أن صاحبك لم يفقد عقله بعد! دليل لا يقبل الدحض أمامه! فهل يُسر؟

«**كيف حاله؟ اشتقتُ له كثيرا..**»

يجب أن يتشبث بهذا الدليل الهام بأية وسيلة ممكنة، لكن كيف؟

تبدت نظرة مبهمة في عينيه، فيما أصابعه آخذة بضغط الأزرار بسرعة:

«**ثمة مكروه قد أصابه!**»..

«**مكروه؟**»..

«**أجل وأقسم لكِ!**»..

«ما الذي أصابه؟»..

« لا كلمات لوصف الواقعة، إذا أردتِ مساعدتي... حذف... مساعدته يجب أن نتقابل.. أنا وأنتِ!»..

وصنع من أصابعه شبكة أراح فوقها ذقنه، انتظر مطولا قبل بزوغ الجواب الذي كان يتوقعه:

«أتحاول إيقاعي بحبائلك؟!»

تنهد وهو يهرش جبهته بضيق، يجب أن يتصرف قبل أن يطير الدليل أدراج الرياح دونما عودة:

«أرجوكِ! صديقي واقع بمشكلة، أنتِ الوحيدة القادرة على مساعدته!»..

الرد أتى أسرع من المعتاد:

«يبدو أنك وصاحبك من هواة العبث! وداعا!»

فقد أعصابه ضاربا الشاشة براحة يده.. لا يا مغفلة! أنتِ لا تفهمين ما يحدث! لا ترحلي بحق الله! لا ترحلي!!

هكذا ضغط الأزرار بجنون، لدرجة أنه أخطأ إملائيا في أكثر من كلمة:

«أقسم لكِ إنه واقع بورطة حقيقية! أنا صديقه وأرغب بمساعدته، وإذا أردتِ إثبات أنكِ لستِ مجرد عابثة تهوى الدردشة مع الشبان عليكِ بمساعدتي.. أتوسل إليكِ.. أنا وحدي في كل ما يحدث!»

شبك أصابعه مجددا، أرجوك يا رب! لا تدعها ترحل! لا تدعها..

«هل هو في ضائقة مالية؟»

انبعث الأمل في نفسيته من جديد، فأسرع يدوِّن ملهوفا:

«ليت الأمر اقتصر على المال، لكنا في أفضل حال!»

الجواب يظهر متأخرا، المهم أنه لازال يظهر..

«ما المشكلة إذاً؟»

كتب متوجسا خيفة من رحيلها للأبد:

«ثقي بي أرجوكِ، هذا الحديث لا يصلح بتاتا هنا وعلى هذا النحو.. يجب أن نتقابل.. يجب!»

زر «إدخال» ومن ثم ابتهالات وتضرعات ألا..

أخيرا ظهر الجواب الذي أثلج صدره وأعاد له حيويته:

«أين وكيف ومتى؟»

- **«أين شرد ذهنك؟»**

تلفت حوله مستيقظا من دوامة الخواطر، فوجد جميع الطلبة قد رحلوا، لم يبق سواه والدكتورة التي طالعته بنظرات متفحصة..

دمدم شاعرا بالخجل:

- آسف..

- لا عليك.. تبدو مشتت الذهن، مشاكل؟

- أنا..

- بإمكاني مساعدتك..

لا أحد بإمكانه مساعدتي الآن سوى «قلب المحيط»!

تنحنح معتدلا في جلسته، ثم همس بوجل:

- متوعك قليلا، هذا كل ما بالأمر..

حدَّجته بنظرات مرتابة، هي لا تصدقه حتما فهي ذكية، لكنها اختارت ترك الأمر له بسلام حتى يأتيها طالبا النصح..

- «عن إذنك..»

احتمل كتبه وخرج مراجعا تفاصيل الخطة في ذهنه.. اليوم سيتم اللقاء في الساعة التاسعة والنصف داخل الكافيتريا ، عليه البحث عن فتاة سوداء الشعر قمحية البشرة، ترتدي تنورة حليبية اللون مع شال قرمزي شفاف.. أما عنه فسيلف حول رسغه منديلا أخضر اللون، كذا كان اتفاق التعارف «المبتذل» بينهما..

قدمه اليمنى تهتز بعصبية، طالع الساعة فوجدها التاسعة والنصف وثلاث دقائق.. تأخرت! لا لم تتأخر! عليك بالهدوء، عليك بالتماسك..
الطلبة يتدفقون عقب انتهاء محاضرات التاسعة والنصف، يحملون صينيات كي يضعوا عليها وجبات الإفطار، لابد وأن تحضر الآن..
نقر سطح المائدة، قدمه تعاود الاهتزاز كذنب حية الأجراس، عصبيته في تزايد، يتحتم أن تحضر وإلا أدرك أنه مجنون، وبأن مقتل (حازم) ليس نهاية هلاوسه وإنما مجرد..
تنورة حليبية مع شال قرمزي.. هذه هي!
(سوزان.. جميل)؟!
لو أن (حازما) – رحمه الله- لا زال على قيد الحياة لسُرَّ أيما سرور لهذا الإنجاز المبهر!
كانت أصابع يده اليمنى تعابث رسغه الأيسر لاشعوريا، عندما تسمرت الفتاة وقد تنبهت للمنديل المربوط هنالك.. بخطا مترددة دنت، بعصبية جلست، بجفاء حيته:
- (الجانب المعتم) إذاً!
- (نادر مطر)، ولا حاجة لكِ بالتعريف عن نفسك فأنت غنية عن التعريف!
- وهذا بالضبط سر مأساتي!
- هل آل با.. أقصد (عاطف) على علم بما يدور بينكما؟ أقصد أنتِ و(حازم)؟
تبسمت هامسة كالحالمة:
- اسمه (حازم) إذاً!
زلة لسان غير مقصودة، ولكن لِمَ لا؟ كان سيبوح باسمه آخر المطاف!
نقرت هي الأخرى سطح الطاولة بأظافرها المطلية بلون زهري، بإمكانهما تكوين فرقة موسيقية معا إذا ما استمر النقر على هذا النحو بدل الحديث..
- «اعذريني على وقاحتي، سأنهض لأطلب لكِ.. ماذا تشربين؟»

- «شاي خفيف..»
خفَّ باتجاه كاونتر الكافيتريا الرئيسي لجلب طلبها، عندما لاحظ قدوم ذلك الطالب الغامض بقبضتيه المضمدتين وشعره الخفيف.. نظر لساعته فوجدها تشير للعاشرة بالضبط دونما زيادة أو نقصان!
ما إن دخل حتى سعل مديرا وجهه للجدار، وبذات اللحظة التقط صينية طعام متحركا بسرعة حتى صار قريبا منه، التقت نظراتهما لثوان نطق عقبها بأغرب ما يمكن قوله:
- الاتهام بالجنون مرة واحدة أكثر من كاف!
- ماذا قلت؟!
- قابلني تمام الساعة الثانية في حديقة الجامعة.. أنت تعلم أين!
بدت خطواته متسحبة ووجهه طيلة الوقت للجدار الأمامي حيث عمال الكافيتريا ، وضعوا له طعام الإفطار، ثم كان عليه التسحب بذات الطريقة إلى غلاية الشاي كي يصبوا له بعضه.. عندئذ توقف وابتدأ يطالع هنا وهناك على سجيته!
لِمَ تلك النقطة بالتحديد؟ راقبه (نادر) متوترا حتى اكتشف أمرا، الطالب يقف بمحاذاة عامود رخامي عريض، كما لو كان مختبئا من شيء!
عقب مناولته قدح الشاي وجده واقفا كما لو كان بانتظار أحد، ثمة طالب ينتظر قدح شاي هو الآخر، ما إن ظفر به حتى سار قاصدا طاولته، فتفاجأ (نادر) بالطالب الغامض يرافقه كما يصنع الفدائي المتسلل حين يتعلق بجانب مركبة عسكرية في الأفلام، سار بجواره ثم انفصل عنه قاصدا طاولته المعهودة جوار الركن!
أحقا كان يتسلل للركن الذي اعتاد الجلوس فيه أم أن بصره يخادعه؟
- «ماذا تطلب؟»
جفل قليلا مطالعا العامل الباسم بنظرات معاتبة، وبعد التقاط أنفاسه

قليلا أجاب:

- قدح شاي خفيف من فضلك..

جهز له طلبه مع عدد من أكياس السكر الضئيلة، فاحتمله ودار على عقبيه عائدا أدراجه حيث الفتاة تجلس منتظرة..

- «هاكِ..»

تناولت قدحها بغير شكر، بدت مرتبكة لحد العصبية، فقال متفهما:

- تخافين من رؤية (عاطف) لنا؟

- سيفرغ من محاضرته الساعة العاشرة والنصف..»

- ممتاز، أمامنا وقت إذاً..

- إذاً تفضل باطلاعي على الموضوع..

- الموضوع أن..

كيف يبدأ بحق الله؟ (حازم) قتل قبل شهر يا آنستي والجميع ينكر وجوده أصلا فيما عداي وعداك؟

- «ماذا؟»

تساءلت بقلق، فتنهد باحثا عن كلمات تسعفه..

كان بصره متعلقا به، الطالب الغامض.. طرف إصبع سبابته مثبت على شفتيه بصمت، ثم قام بأرجحته يمنة ويسرة إشارة بألا يكشف السر! كيف علم بما يدور بينهما؟!

- «الواقع أنه.. يفكر بترك.. الجامعة!»

- «يتركها؟ لماذا؟»

- «والده.. مصر!»

- «أطلعني على قساوة والده من قبل، لكن لِمَ لم يأتِ هو كي يخبرني بنفسه؟»

- «لأنه.. سيظل مختبئا.. حتى يبدل والده.. رأيه!»

- «أتقصد أنه يعاند والده من أجلي؟»

- «تماما!»

تبدت نظرة شاردة في عينيها جعلت جزءًا منه يكن بعض الحسد للفتى القتيل، هذه الفتاة تحبه! وكل هذا عبر موقع دردشة سخيف!

المهم أن يتخلص من هذا الموقف بأقصى سرعة:

- سأطلعك على كل شيء قريبا..

- أريد أن أراه!

- قريبا تفعلين..

- كان من المفترض أن يحضر حفلة عيد ميلادي..

- لا أحسبه يتمكن من..

أضاء وجهها ببارقة أمل وهي تهمس متضرعة:

- هذه فرصة لا بأس بها! بإمكانكما معا حضور حفلة عيد ميلادي!

- لكن..

- الأسبوع القادم، يوم الخميس الساعة السابعة مساء، سيقيمونها لي هنا في قاعة الكافيتريا !

- لكن..

- أرجوك!

شعر بانقباض عميق في صدره، لكنه لم يملك سوى أن يتمتم معلنا استسلامه:

- وهو كذلك!

- شكرا! شكرا جزيلا لك! أنت فعلا خير صديق!

تأملت عقارب ساعتها، فسألها واجما:

- أنتِ باقية أم..؟

قالت قبل أن تنهض:

- علي الإسراع إلى المكتبة لاستعارة كتب خاصة بالبحث المطلوب منا..

شكرا لك على كل شيء، إنك حقا لصديق مخلص!

لا شكر على واجب، أي شيء يسعد صاحبي المتقلب في تربة قبره!

- «لا تنس إخباره بوجوب الحضور.. أرجوك!»

- «سأفعل..»

نهضت وغادرت دون أن تمس قدح الشاي، لا بأس، المهم أنه نهض هو الآخر مقررا رؤية ذلك الطالب حالا لمعرفة ما يدور..

التفت ليجده يرفع كفه المضمدة بإشارة «قف» صارمة لا جدال فيها! ثم أشر بعلامة نصر مضمومة الإصبعين، والتي قصد بها حتما: الساعة الثانية كما اتفقنا!

الفصل الرابع عشر

اللقاء المنتظر عند الشجرة تمام الساعة الثانية كما اتفقا..

الطالب يقف في ذات البقعة، لم يغير شيئا من سلوكه مذ التقيا أول مرة، سلوك المراقب، أحدهم يراقبه حتما، كيف ولماذا؟ هذا ما يتوجب عليه معرفته حالا..

سار (نادر) على العشب الأخضر الندي مقتربا بعجلة من ذلك الطالب، فأسرع الأخير يقول بحزم آمر:

- اجلس أسفل الشجرة حالا!

خضع ولم يناقش، كان يمتاز بعقلية عملية، صحيح أن الموقف عجيب وبه مدعاة للاستغراب والتساؤل، لكنه لن يضيع الوقت حتى يتمكن من الفهم..

جلس في الظل منتظرا نطق الفتى، فلما طال الصمت قال بنبرة محتدة:

- نفذت كل ما طلبته مني، والآن أنت مدين لي بتفسير..

- لستُ مدينا لك بشيء..

- إذاً كفَّ عن إضاعة وقتي!

- اجلس واصمت! كفَّ عن التظاهر بالثقة العمياء!

- لا بأس، أعلن الآن توتري وخوفي وعدم تمكني من فهم شيء..

- مرحبا بك في نادي المغلوبين على أمرهم!

- وإدارة هذا النادي العجيب هي التي تراقبك؟

ابتسم الفتى للمرة الأولى، كانت ابتسامة ساخرة مستخفة.. تأمل الطلبة الذين يتنزهون من حولهما قائلا بهمس:

- لستُ وحدي المراقب.. العين في السماء! دائما متواجدة، بكثرة، وبكل مكان!

- آه! نظرية المؤامرة! «الأخ الأكبر يراقبنا»!

- اصمت!

نطقها بخشونة مفرطة، فلزم (نادر) الصمت، ثمة حد فاصل ما بين المزاح والجدية، هذا الفتى قوي لكنه متوتر، ومن الواضح أنه لم يعش لحظة هانئة منذ مدة طويلة للغاية!

- «هل لي بمعرفة اسمك على الأقل؟»

- «لن تهمك معرفته كثيرا..»

بذات الخشونة المفرطة، كان عاجزا عن البدء، يفكر ألف مرة قبل أن يجازف بإظهار الحقيقة.. ثم قال وكتفه مرتكز على جذع الشجرة:

- والآن أطلعني على ما دار بينك وبين تلك الفتاة..

- لماذا؟

- يجب أن أعرف ما توصلت إليه لغاية الآن!

هكذا لم يملك (نادر) الخيار، فقرر المجازفة واطلاع الشاب على كل ما وقع.. وفي نهاية سرده للحكاية، دق الشاب الجذع بقبضته المضمدة قائلا بنبرة قاسية:

- يا لك من أحمق! ألا ترى أنك تضيع وقتك؟ من سيصدقك؟ الشرطة؟ حين تجلب لهم فتاة كانت تحادث شخصا مجهولا على الطرف الآخر من موقع الدردشة قد يكون أنت أو أنا؟ كيف بربك توقعت تصديق الفتاة مثل هذه الحكاية المخرفة؟ هي نفسها لا تعلم حقيقة من كانت تحادثه على الموقع، قد يكون..

- أنت أو أنا.. فهمت! اسمعني أرجوك، أشعر أنك تعلم بحكايتي مع..

- شريكك القتيل، أجل..

تنفس (نادر) الصعداء، ثم غمغم ملهوفا:

- كيف تعرف إذاً؟

- رأيت رجال الشرطة يدخلون المبنى، ثم طلبت بعض المعلومات عن طريق سنجابكم!

- (هيثم) كان يعمل لحسابك؟

- (هيثم) ذاك يعمل لحسابه فحسب- أو أن ذلك ما يحسبه-، مقابل المال بإمكانه الرقص والغناء بثيابه الداخلية في الشارع!

- أنت دفعت له كي يراقبني؟

- بل طلبت منه مراقبتك عقب وقوع الجريمة التي لا يزعم الآن أحد سواك بوقوعها! هل تعلم لماذا؟

أجاب (نادر) وخفقات قلبه أقرب للصفعات:

- لا، لماذا؟

- لأنك مراقب أيضا يا صاحبي! مراقب مثلي تماما، إنها العين في..

- السماء أجل! ومن الذي يراقبنا بحق الله؟!

بصق جانبا قبل أن يرد واجما:

- إدارة الجامعة.. أو التي تتظاهر أنها كذلك!

حدق به ذاهلا قبل تبسمه هامسا بمكر:

- بارانويا!

- اصمت! لا تحادثني بلغة طبيب نفساني! أنت طلبت معرفة الحقيقة!

- وهي أن إدارة الجامعة تراقبنا؟

- لم أقل الإدارة بل قلت من يتظاهرون بأنهم الإدارة..

- أريد مزيدا من الإيضاح.. من يكونون؟ أمن الدولة؟ المخابرات؟ كائنات فضائية من زحل تحاول دراستنا؟

ردَّ الشاب متلفتا حوله:

- انس الأمر! لقد أضعتَ على نفسك توًا الفرصة لمعرفة الحقيقة كاملة!

وانطلق في سبيله، فطارده صوت (نادر) الغاضب:

- أنت معتوه! مجرد معتوه!!

لكنه ابتعد غير مبال بالرد، فلهث (نادر) ووجهه محمر من شدة الاغتياظ، مجنون يقابل مجنونا ينافسه على عرش المجانين!

****

مضى هو الآخر في طريقه حتى دخل السكن متجها إلى غرفته.. هناك، جلس على طرف الفراش مفكرا، هل يتجاهل كل ما حدث ويواصل حياته بصورة طبيعية مزعومة أم..

الاستلقاء يجعل التفكير أفضل، تأمل السقف ببصر لا يطرف، ظل مكابدا حتى اضطر لإغلاق عينيه..

كم أنا وحيد!

التكييف يعمل أخيرا، أصلحوه إذاً، في البداية كانت الكهرباء عقبتهما، ثم أتى دور التكييف، (حازم) اقترح شراء مروحة لكنه..

كفى! لا أريد تذكر شيء عن (حازم)! فهو مجرد خيال! ذكريات تضر ولا تنفع.. يجب أن أفكر بوالدتي وشهادتي، يجب أن أفيق وأتجاهل حمقى العالم الخارجي.. مجرد أعداء للنجاح! وذلك الشاب منهم!

كل خلية في الدماغ تعمل مستقلة بذاتها، واحدة تنبذ الأفكار وأخرى تؤكدها، تناقضات جمة، والنتيجة صداع، لا بأس بالصداع ما لم يقده نهاية المطاف إلى مصح للأمراض العقلية!

رباه.. ماذا أصنع؟ ماذا أصنع؟!

نهض مشوشا وقد عجز عن أداء تصرف يشعره بالراحة.. ينام؟ يأكل؟

يذهب للمكتبة؟ كلها خيارات بلهاء.. الحقيقة؟ لماذا يرغب البعض بمعرفتها؟ الجهل نعمة والفضول قتل القط! يجب الكف عن المكابرة والالتحاق بركب البشر الأبله في الحياة المعتادة، الحقيقة دائما مؤذية، الحقيقة دائما.. ما هذا المظروف الممرر أسفل بابه؟!

أهو كابوس آخر؟ تخريفة أخرى؟ لا سبيل للتأكد سوى بالنهوض بدل الجلوس الأحمق والتحديق بخبل.. انهض عليك اللعنة!

سار باتجاه الباب، لن يفتحه، فقد رحل المرسل منذ زمن وبكل تأكيد!

انثنى، أصابعه استشعرت ملمس المظروف المصنوع من ورق الدشت، مظروف يتمزق بسهولة، لكن ما بداخله ليس كذلك..

في ذهنه ومضة.. صور! مزق المظروف، حقا هي صور، صور..

سقطت من أنامله أرضا، تبعثرت هنا وهناك، في حين طفق يرمقها بذهول وهلع لا حدود لهما!

الفصل الخامس عشر

الساعة السابعة مساء يوم الخميس.. يوم حفلة عيد ميلاد (سوزان)..

ارتدى (نادر) أكثر الثياب التي وجدها مقبولة عليه لأجل المناسبة، ثم عرج على محل هدايا باحثا عن واحدة تناسب فتاة جميلة ومصروف جيبه، بحيث يرسم بسمة تشع بشاشة على شفتيها دون أن يجوع هو باقي الشهر..

لم يجد أنسب من قطعة خشبية يتم تفريغ اسم عليها ثم توضع على شكل قلادة، ثمنها معقول إلى حد ما..

طلب من البائع أن يضع اسم (حازم)، قبل أن يغير رأيه في الثانية الأخيرة طالبا منه وضع لقب «أمير أزلي»..

- «لا! توقف! ضع اسم (سوزان)! أجل، هذا أنسب..»

الرجل يتساءل بنفاد صبر:

- أمتأكد هذه المرة؟

- متأكد، توكل على الله!

هكذا وضع البائع اسمها على القلادة، ثم وضع القلادة داخل علبة صغيرة لفها بورق زينة وشرائط ملونة معقودة على شكل فراشة ذات شكل مبتذل..

التقط (نادر) الهدية منقدا الرجل ثمنها، وطفق عائدا إلى الجامعة مفكرا في السبب الذي دعاه إلى تغيير الاسم، أتراها الغيرة؟ كيف يغار من صديقه

القتيل؟ يا لها من دناءة!
حاول إقناع نفسه بأن الفتاة يجب أن تنسى (حازما) عاجلا أم آجلا، لمصلحتها.. لكن من تراه يخدع؟ أيفكر بصالحها أم بصالحه هو أولا؟
لربما بصالحهما.. معا!
وجد نفسه – لا شعوريا- يشتم إبطيه كي يتأكد من وجود رائحة بقايا العطر الذي رشه، ابتاع من بقالة قريبة بعض العلكة، ألقم فمه واحدة مضغها على عجل، الحذاء لا بأس بنظافته، كان يجب أن يكوي ملابسه بعناية أكبر..
أخيرا توقف أمام زجاج سيارة من عشرات السيارات الواقفة أمام قاعة الكافيتريا ، فصفف شعره بالطريقة التي وجدها جذابة أكثر، ثم مارس تنفسا منتظما، شهيق زفير.. الأمور كلها تمام!
بصق العلكة فالتصقت بمصباح سيارة، عاود انتزاعها، ثم رماها على قارعة الطريق بشيء من العصبية، ثم عجَّل بالدخول كي لا يغير رأيه ويلوذ بالفرار!

****

الجميع تقريبا هنا!
كذا حاول إقناع نفسه، لكن الحقيقة غير ذلك في الواقع، أكثر الوجوه لم يتمكن من تعرفها، بحث مطولا عن وجه مألوف يتشبث به حتى تهدأ نفسيته فلم يفلح..
وهنا أبصر كابتن فريق السباحة المختال بعضلاته، على الأقل كان يعرف شكله، لكنه لن يذهب إليه كي يخاطبه عن روعة هذا الحفل المزدحم بالطبع!
الزينة معلقة بكثافة وعناية، والبوفيه مفتوح ومجاني، إذا لم يجد طالبا واحدا من السكن فالسبب حتما أنهم لم يسمعوا بالحفل، وإلا لانقضوا كطيور جارحة ملتهمين كل شيء بضراوة!

تنبه لأغان شبابية عربية، بل غربية، معكرونة مسلوقة! الصوت صاخب والكلمات غير مفهومة.. ماذا يقولون بحق الله؟ سيارة بلا أبواب! ها هي ذي الفرقة تعزف على مسرح مرتجل من طاولات وشراشف وضعت فوقها مكبرات صوت عملاقة، ثيابهم عبارة عن شورتات وقمصان سود دوِّن عليها اسم الفرقة المستأجرة:

«Punk›s Head»

اسم دال على خلل في العقل وتقليد أعمى للغرب، جميعهم بذقون جحا المدببة، قرع طبول وجيتارات، الجميع يرقص بانتشاء أفاعي الكوبرا على المزمار الهندي!

ارتطم تقريبا بالجميع.. عذرا، آسف على.. انتبه! كان عليَّ المكوث داخل غرفتي والإصغاء إلى (فيروز) و(أميمة)!

الشبان ارتدوا بدلات سهرة وبابيونات، والشابات ارتدين فساتين سهرات قصور الدوقات، البعض تخلى عن بدلته ليرقص بالقميص الأبيض والفراشة السوداء المضحكة المزينة لياقته، أما الفتيات فتخلوا عن الشالات الشفافة التي ولجوا بها الحفل لتغطية أكتافهن العارية، رموها جانبا ما إن بدأ الرقص الصاخب.. مزيج من الرقصات! بهارات! يكاد لا يتعرف على أية رقصة، كان يكره الرقص، في مرة من المرات دبك! في عرس ربما، الدبكة أقرب للرياضة منها للرقص، لكن ما يمارسونه هنا أقرب للخنث!

شاب يهز وسطه، فتاة تلاصق فتى ظهرا بظهر كما يفعلون في الرقصات اللاتينية الجريئة.. هواء! هواء! رائحة العرق النتن متصاعدة، العرق يلوث ثياب الذكور ويلتمع في أعناق الإناث!

البوفيه يحيط بالجميع كسور خشبي مبني حول قطيع من الماشية، ترى كم تكلفت حفلة كهذه؟ الأطباق نصفها على الأقل مأكولات بحرية، أيقدم المحار والجمبري في حفل عيد ميلاد؟

الحلويات متنوعة، متباينة ما بين شرقية وغربية، رائحة المطاعم تفوح من أطايب الطعام، وروائح الحلو تفوح كأن ثمة مخبزا هنا، داهمه شعور مفاجئ بالشبع، كان جائعا وهو بطريقه للحفل، جوع متعمد للحفاظ على الميزانية بتناول أكبر قدر من الطعام الفاخر! لكن الأجواء هنا وترته لحد الشبع!

تذكر السيارات متقدمة الموديلات بالخارج، ثم عاين لائحة المدعوين من حوله برؤية جديدة ومختلفة، فاكتشف أنه قملة وثبت بالخطأ بين أولئك ال..

أخيرا أبصر (سوزان).. واقفة بفستان سهرة عنابي تتلألأ نجوم دقيقة عليه، شعرها مصفف على الطراز الفيكتوري العتيق، بيد مغطاة بقفاز مخملي وردي أمسكت هاتفا نقالا، تحادث شخصا على الطرف الآخر بعصبية يسهل تبينها..

اقترب كالحلزون، فما إن بلغها حتى بدأ بالتنحنح، لا هي ولا هو سمعا نحنحته الضعيفة! الصخب الموسيقي دائر كحرب أهلية.. دفعة خشنة من الوراء جعلته يستند عليها كي لا يختل توازنه!

نظرت للوراء باحثة عن الوقح الذي جرؤ على فعل ذلك كي تصفعه، لكنها لانت ما إن وقع بصرها عليه.. كانت أجمل أنثى متبرجة وقع بصره عليها!

قالت كلمات لم يتمكن من سماع حرف منها، فصرخ بكل ما أوتي من قوة:

- عيد ميلاد سعيد!

وعلى طريقة العجائز وضع يدا على أذنه اليسرى ليسدها مقربا اليمنى من شفتيها، فاكتفت بضحكة – غير مسموعة أيضا-، وجذبته من يده إلى أكثر الزوايا انخفاضا في الصوت..

- «متى أتيت؟»

آه! هذا أفضل بكثير!

- «قبل برهة، عقبال مائة سنة..»

رفع يده بالهدية، وفي تلك اللحظة وجدها ضئيلة جدا، تافهة للغاية.. يعلم الله إنها أحقر هدية تلقتها في حياتها بأسرها!

- «شكرا لك! سأفتحها الآن!»

كان هذا أكثر ما يخشاه، لكنه قال متصنعا الحماسة المطلقة:

- إنها هديتكِ!

شرط ألا تقذفيها في وجهي!

- «إنها.. أكثر من رائعة!»

القلادة تتدلى من يدها، تدور حاملة اسمها المفرغ من الخشب بخط ديواني بديع.. ربما لم تكن هدية سيئة إلى ذلك الحد!

«ساعدني على ارتدائها»! خاطرة وترته، ماذا لو طلبت منه مساعدته على.. إلا أنها أعادت هديته داخل العلبة لحسن الحظ، فشعر بسكينة نسبية وإن شابها شيء من خيبة الأمل، لِمَ لم تطلب منه مساعدته على ارتداء هديته لها كما يصنعون في الأفلام اللعينة؟

ملك المشاعر المتناقضة!

- «حفلة جميلة..»

أومأت برأسها متظاهرة بالحماسة..

- «والدي يحاول إرضائي بشتى السبل..»

أومأ برأسه هو الآخر، ثم تساءل:

- كنتِ تحادثين أحدا..

- من؟ آه! إنه (عاطف)..

لم يسأل عن سبب ضيقها من المكالمة، كان يعلم أنها ستخبره، ستحاول التنفيس عن غضبها المكبوت بالتحدث، كانت عصبية مع فتاها على الهاتف، من الواضح أنه لن يتمكن من المجيء..

- «والده دبر له تجربة أداء على المسرح، لن يتمكن من الحضور..»

- «هكذا إذاً!»
(آل باتشينو) المغفل! أستطيع التضحية بمستقبلي كله من أجل قضاء بضع ثوان معك!
- «(حازم) لن يتمكن من الحضور أيضا، وقد طلب مني الاعتذار لكِ بالنيابة عنه..»
- «لكنك أتيت.. هذا هو المهم!»
أحقا؟ لم أكن أعلم! كنت أحسبكِ..
الموسيقا تتوقف أخيرا، فيصرخ جحا الصاخب في كرة المايكروفون كالمخبولين محاولا تقليد (ألفيس):
- **!Thank you! Thank you very much**
والكل يصفق، حان وقت الأكل إذاً.. لا، لم يحن، فرقة الحيوانات المفترسة انقلبت حيوانات أليفة فجأة بعزف رتيب، ألحان هادئة، والمطرب الرئيسي يغني بعقيرة مبحوحة أغنية جاز زنجية..
الكل يتصنع الرومانسية الآن، بعض الفتيات انحنين لدعوات الرقص الممتدة عبر أكفف الشبان المرفوعة، فكتم ضحكته للمنظر الطريف.. يا له من حفل عيد ميلاد!
- «ما رأيك؟»
- «في ماذا؟»

في الحفل؟ الواقع أنه حفل أقرب إلى خيمة سيرك! نظر لها فوجدها واقفة بانتظار شيء، تبتسم، دعوة مفتوحة! للمراقصة؟ لا!!
ظل يردد كأبله حقيقي:
- في ماذا؟
- في رقصة، لاحظ أنني سبقتك في الدعوة!
أراقصك؟ أنا؟ يا له من حلم! ستكونين أول أنثى ألمسها بخلاف والدتي

عندما أقبل يدها!
قال شاعرا بأذنيه تشتعلان:
- أنا.. لا أعرف الرقص!
قالت بمرح:
- ولا أنا! سنقلدهم فحسب!
والتقطت راحة يده، فاستشعر تيارا عنيفا يسري هنالك بلا هوادة، كانت يدها بضة طرية، رغم القفاز تمكن من تبينها، بجرأة وضعت له يده على خصرها، والتقطت الأخرى واضعة يدها الثانية على كتفه! يا له من شعور غريب ومثير بآن واحد!
بدآ التمايل المضحك، تحرك بأقصى درجات الحذر كي لا يدوس قدمها، فتمتمت ضاحكة:
- مالك مطرق برأسك هكذا؟
- أنا؟
- لا تخف، دع الإيقاع يحركك! دع الموسيقا تأخذك!
دع الموسيقا تأخذك! ذات الكلمات التي رددتها كل بطلة راقصت بطلا في فيلم! المشكلة أنه لا الإيقاع ولا الموسيقا يساعدانه على الاندماج في الجو الرومانسي المصطنع، كان عصبيا، فتبسمت هامسة:
- لا بأس بك!
- أشعر بالحماقة!
ابتعدت عنه ببطء ويدها لا زالت ممسكة بيده، دارت كالفراشة، فعاود تأمل الأرض بوجه محمر، كان يعاود تخيل قدها الرشيق وهو يدور مرارا وتكرارا، كان منظرا مذهلا يسر الناظر إليه دون ملل..
شعر بأنامل ترفع ذقنه، في هذه المرة التصقت به الفتاة أكثر من ذي قبل، وبتؤدة همست في أذنه:

- أأنت بخير؟

- أعتقد هذا!

نطقها كالمأخوذ، كالمسحور، استسلم لها تماما، صارت تقود خطاه على هواها، فلم يشعر بالسعادة أكثر من تلك اللحظات، وتمنى أن يظلا على حالهما للأزل..

الصور:

خصلة شعر مقتلعة من الجذور! ثلاث أصابع مكسورة، كدمات من آثار ضرب مبرح..!!

- «أنت غارق بالعرق!»

قالتها ضاحكة، فابتعد عنها ذاهلا، ردة فعله صدمتها بعض الشيء..

- «معذرة.. يجب أن أرحل.. الآن!»

- «ماذا عن التورتة؟»

يجب الرحيل.. ارحل.. الآن!

- «آسف.. عقبال مائة سنة!»

وعجَّل بالرحيل.. فما إن صار بالخارج حتى لهث كهارب توقف أخيرا عن ممارسة الركض.. ماذا أصابني؟ ماذا دهاني؟

أنا مدين لحازم بشيء، أشياء في الواقع، ليس من ضمنها مراقصة فتاته بكل تأكيد! الهواء! منعش حقا! كدت أختنق بالداخل!

استند على ركبتيه كي يستجمع قواه، زاوية الرؤية من طرفه التقطت شيئا، أحدهم يراقبه.. شخص متستر بالظلام.. وهم أم حقيقة؟

أصابع ممسكة بعقب سيجارة متوهجة الطرف، أصابع أعرض من اللازم، خشنة أكثر من اللازم.. فاتحة أكثر من اللازم!

إذا لم تكن ضمادات طبية فماذا تكون غير ذلك بحق الله؟!

الفصل السادس عشر

هاهو ذا قادم..

من مقعده وسط الكافتيريا تمكن من رؤيته، بقبضتيه المضمدتين وشعره الخفيف وسترته المهترئة، تمام الساعة العاشرة، مواعيد الإنجليز يحافظ عليها طالب لا يوحي مظهره بالدقة كثيرا!

كالعادة ابتدأت رحلة الدقة.. ما إن دخل حتى سعل مقرضا وجهه للجدار، وبذات اللحظة التقط صينية الطعام..

خطواته المتسحبة ووجهه طيلة الوقت للجدار الأمامي حيث يضع له عمال الكافتيريا وجبته، ثم التسحب المريب بذات الطريقة إلى غلاية الشاي كي يصبوا له بعضه في قدح..

الانتظار.. طالب ينتظر قدح شاي هو الآخر، المسألة ليست رهانا، من مراقبته التي دامت أسبوعا تأكد من أنه لا يدخل إلا لو وجد طلابا على الكاونتر، فهو يبحث عن المرافق الذي سيوصله إلى ركن الأمان طبعا!

هكذا نهض متجها إليه..

****

كان الفتى المصاب بالبارا نويا قد فرغ من أخذ وجبته متجها للغلاية،

عندما فوجئ بنادر يقف إلى جواره!

تظاهر برباطة الجأش متسائلا:

- ماذا تبغي؟

- ما قولك أن نتمشى قليلا؟

- نتمشى؟ أين؟

- هنا وهناك!

- كفَّ عن معابثتي وإلا..!

- أخبرني إذاً عما يخيفك، ممن تختبئ كل يوم؟ لماذا تحيا كشبح؟

- لأنني بالنسبة للجميع هنا مجرد شبح! والآن ابتعد عن دربي..

- ليس قبل أن تخبرني بما يحدث..

راقب انفعالات (نادر) باهتمام، ثم قال:

- مستجدات في قضيتك على ما يبدو..

- تسلمتُ شيئا متعلقا بجريمة قتل (حازم)، صور ملتقطة تؤكد وقوع جريمة بحقه، صور تؤكد أنني بكامل قواي العقلية!

- هي مسألة وقت قبيل فقدانك عقلك بأكمله، فقد ابتدأ الأمر!

- ما الذي ابتدأ؟

- وما همك يا فتى حفلات أعياد الميلاد؟ ماذا اشتريت لها كهدية؟

- إذاً كنت تراقبني ليلة البارحة!

- وأعجبت بمقدرتك المذهلة على نسيان أمر صديقك القتيل!

طارت الصينية بضربة عنيفة لتسقط أرضا، فهرش الفتى حنكه متصنعا ابتسامة، هامسا وبصره يطارد كل الوجوه المحدقة بآن واحد:

- أأنت سعيد الآن؟ الجميع يحملقون بنا! استدر ودعنا نرحل من هنا..

- ليس قبل أن..

- ألا تبا! سأطلعك على كل شيء، والآن استدر ودعنا نخرج..

سار (نادر) باتجاه الممر والفتى شبه ملتصق به، بذات الأسلوب الذي يستخدمه مع الطلبة للوصول إلى ركنه المفضل داخل الكافيتريا ..
ظل يسير بمحاذاته معطيا إياه تعليمات توحي أنه مراقب، توقف هنا، فلنقطع هذا الشوط على طريقة نصف الدائرة، سنخرج إلى مرآب السيارات.. وأغلبية الوقت كان يتظاهر بتحسس بطحة متعمدا إخفاء وجهه من زوايا معينة في عدة بقع، وبهمس جاف لما صارا خارجا:

- أترى الموقف الخاص بدكتور علم الاجتماع؟

سارا هناك حتى توقفا عند مقدمة السيارة، وعندئذ بدأ الشاب يتصرف على سجيته، فأوثق بساعديه قائلا باحتداد:

- أرني تلك الصور التي تتحدث عنها..
- ليست معي..
- وأين هي؟
- تركتها في مكان آمن..
- ثم تأتيني مناشدا المساعدة.. يا لك من أحمق!

صرخ (نادر) وقد فقد القدرة على التماسك أكثر:

- وما يدريني أنك لست بمرسل تلك الصور؟!

قبضت أصابع الكلابات المضمدة على ياقته، وبذهن كالمدوخ أنصت إلى نبرة مختلفة عن ذي قبل، نبرة ذات خواص مغناطيسية:

- لا ترفع صوتك! هذه أول قاعدة..
- والثانية؟

أفلته مجيبا:

- لا مكان آمن ما دُمتَ لا تعلم أماكن إخفاء العين في السماء!
- ألا وهي..؟
- كاميرات المراقبة! هي في كل شبر!

- إذاً فهذا ما كنت تختبئ منه!
- أنت بطيء الفهم، أتساءل عن سبب اختيارهم لك!
- من؟!
- إدارة ما فوق الإدارة! هكذا أطلق عليها أنا، وإذا نطقت كلمة «بارانويا» حطمت لك أسنانك!
- لا تخف، فقط أطلعني على الحقيقة..
الطلبة يروحون ويجيئون بكتبهم ومراجعهم، وجوه تنطق بالبشر ووجوه بالتعاسة، نجاح ورسوب، تفوق وتأخر.. كان يطالعهم ببصر واهن، ثمة ما دفع (نادر) إلى احترام صمته وعدم مقاطعته..
- «اسمي هو (طارق عكاز)!»
هذا مؤشر جيد، الاعتراف باسمه أخيرا – لو كان اسمه الحقيقي فعلا-، لكنه أمل الظفر بمعلومات أهم..
رفع قبضته المضمدة مردفا:
- وهذا ما يحدث لمن يبحث عن الحقيقة!
- أتقصد أنهم.. فعلوا هذا بك؟
- لا، هم يدفعونك فحسب إلى فعل ما لا يخطر لك على بال! يزرعون الشك والغيرة والكراهية والحب والغضب الأعمى وحتى اللطف في روحك، حسب أهوائهم!
يتصرفون كالشياطين! تحسبهم يوسوسون لك، أكثر الذين عرفتهم فقدوا عقولهم، بعضهم اختار إنهاء حياته بيديه، والبعض الآخر فضل ترك الحبل على الغارب لهم، يتلاعبون بعقله كما يشاؤون حتى يفقدونه إياه.. كنتُ الوحيد الذي فضل اختيار طريق خاص بي بمنأى عن تجاربهم، فهربت وفكرة جنونية تطاردني.. الانتقام!
- منهم؟!

- أجل منهم، إدارة ما فوق الإدارة، أولئك الذين يزرعون برأسك فكرة رهيبة بأنهم غير موجودين.. أنت الذي تتصرف من تلقاء نفسك، وما يدور حولك هو حظ عاثر لا أكثر! سمها الحياة، لكنهم من يسطرونها لك كالقدر المكتوب!

سأسرد عليك ما توصلت إليه.. سمها نظرية، لكني متأكد منها!

أنا شهدت هذا السيناريو المروع، يختاروننا بعناية أولا، لكل فرد سيناريو مسطور باحترافية، الفتاة تظفر دوما بألاعيب الحب والخيانة، أحيانا يتمادون كي يتعلموا أكثر، فيدفعون بها إلى هوات لا تصدق قيامهم بها تحت مسمى «اختبارات».. مخدرات، رذيلة، ومن ثم يبدؤون بدراسة النتائج!

أما نحن فنتراوح ما بين الفاشل والناجح، السارق والقاتل، الصادق والكاذب، القوي والضعيف، يختاروننا شبانا دائما، يوكلون لنا مهمات لا ندر عنها شيئا، الملتزم يجد أبواب الرذيلة مفتوحة له على مصراعيها، المتفوق يجد نفسه عرضة لدروب المخدرات، القاتل يفاجأ بمن يعلم بجريمته فيحيا حياة جرذ معرض للغرق، وفي كثير من الأحيان يجد نفسه حرا بريئا دون أن يفهم السبب!

- أنا..

«**لم أفهم!**»... لم ينطقها، لكنها تبدت في عينيه، كانت عيناه مذعورتين، وأنفاسه تتلاحق من فرط الخوف، هذا الفتى مجنون.. لا.. ليس كذلك.. بل كذلك!

- «لديهم أعين وآذان في كل جانب وركن، قد يدفعونك للنجاح أو الفشل بحيث لا تصدق، الفقير يستيقظ ليجد أنه فاز ببطاقة اليانصيب ، والغني يصحو ليجد أمواله كلها ضاعت بطرفة عين! عذراء تفيق لتجد نفسها حامل، وأخرى حامل تستيقظ لتجد أنها أجهضت وهي نائمة! الصحيح

يفيق ليجد بدنه معتلا بفعل المخدرات أو حتى الإيدز، والمريض يصحو ليجد نفسه وقد تماثل – بقدرة قادر- للشفاء!

قد تنهض لتجد جثة في سريرك مع مداهمة رجال الشرطة مسكنك، وقد تجد نفسك مستيقظا بأطراف مبتورة أو كلية مستأصلة! لك أن تتصور عشرات.. لا بل آلاف الأفكار التي لا تنضب! كما لو كانوا تلامذة الشيطان!

- إن لم يكونوا كذلك، فماذا..؟!

- ماذا يكونون بالضبط؟ بشر مثلي ومثلك لكن بعقول جهنمية! إذا أردت نظرية، هم علماء من مختلف بلدان العالم يعملون تحت قيادة واحدة!

- أهذه نظريتك؟

- ليست نظرية بقدر ما هي صحيحة! الجامعات أماكن دراساتهم المفضلة، يدرسون السلوك البشري ككائنات الفضاء الممهدة للغزو! يُخضعون عينات بشرية منتقاة سلفا لاختبارات لا تصدق لأهداف غير معلومة، لكن من خبراتي السابقة فيما اطلعت عليه واكتشفته، أستطيع الجزم بثقة كبيرة أن هدفهم أسرار السلوك البشري!

- إذاً فنحن بالنسبة لهم كما الكلاب بالنسبة لتجارب بافلوف!

- لم أفهم مقصدك بالضبط ولا يهمني فهمه.. كل ما أدركته عنهم أنهم قساة، وبفضل قساوتهم فقدت عزيزا علي!

- كيف بحق الله؟!

- كما أطلعتك سابقا! هذه الاختبارات تتم في عشرات الأماكن بقيادة تنظيم واحد ممول، قد يكون تنظيما أجنبيا لأن مثل تلك الأفكار النازية لا تخطر ببال علمائنا الحمقى! لا أعلم شيئا بالنسبة للحكومة، أهي متورطة معهم أم غير عالمة بما يدور، فهم كالأطياف اللعينة!

أنا بالأساس شاب عاطل عن العمل، وبتقديري الضعيف في الثانوية العامة حصلت على منحة! كان هذا مجرد طعم، مصيدة من عشرات المصائد

لرؤية ما قد يصنعه شخص مثلي في جامعة محترمة..
ثم انهالت الاختبارات، حسبت بأني وجدت حبي هناك، ثم اتضح لي أنها تعبث بي ، تلهو بمشاعري.. كما الأفلام المبتذلة!
إساءات كثيرة ومعايرات من أبناء أصحاب النفوذ الذين لا يدرون ما يدور من حولهم، وفي النهاية اتهامات باطلة بالسرقة..
ثم السجن، وبعدها الخروج بكفالة، اكتشفت بعدها أنها هي التي دفعتها، حكاية حب قصيرة تحدث بعدها جريمة قتل.. قتلها هي!
أتعلم سبب اكتشافي لذاك القدر الهائل من المعلومات؟ لأن الأوغاد يحسبون أنفسهم آلهة تتحكم بمشاعر ومصائر البشر! (رنا) أحبتني بصدق، فكشفت لي حقيقة ما يدور، وبالتالي دفعت الثمن!
أنا الآن مطارد بتهمة قتل الفتاة التي أحب! أعيش حياة المطارد دونما دراية ما إذا كانوا يعلمون مسبقا بمكاني ويحاولون دراسة سلوك ومشاعر الهارب قبل إلقاء القبض عليه، ومن ثم يحاولون دراسة مشاعر المحكوم عليه بالإعدام!
تفكر (نادر) بمصاب (طارق)، فوجده عظيما أليما – إذا ما كان حقيقيا-، لقد عانى الفتى الأمرين، مأساته أليمة بحق، مخيفة.. شعر بحاجة ماسة لقول شيء فلم يجد سوى تلك العبارة العجيبة ليتفوه بها:
- «**تضحي المرأة بكل شيء من أجل الرجل الذي أحبته، لكنها لا تهتم بمن تثق في محبته لها!**»
- «لم أفهم ما تود قوله، ولكن ينتابني إحساس بأنك تحاول التخفيف عني.. إياك أن تفعل!»
(نادر) يتأمل الطلبة والعشب والهواء بذات النظرات خاوية التعابير، صراع هائل يدور بين خلايا دماغه، ترى ماذا ستكون النتيجة؟
يا للهراء الذي هرف (طارق) به! لكنه هراء لا يخلو من بعض المنطق..

أي منطق هذا؟ الفتى مجنون! لكن.. ماذا لو كان كل ما يحدث حقيقي؟ لكن كيف؟ كيف؟!

سدد بنظرات عصبية صوبه قائلا بنبرة شديدة الحنق وأصابعه ترتعد:

- قلت إنهم يدفعونك فحسب إلى فعل ما لا يخطر لك على بال.. فما دافعك بما صنعته بقبضتيك؟

رفع (طارق) قبضته اليمنى مهموما.. بدا كمن يستعيد ذكريات قاسية للغاية..

- عندما بلغ عقلي نقطة التلاعب ما بين الشك واليقين أصبت بحالة لا زلت أحسبها الجنون المطبق! حادثت صورتي المنعكسة في المرآة، قضيت أغلب الليالي أسفل السرير وداخل الخزانة، صارت الحقيقة أمرًا عزيز المنال..

أخرج من جعبته قداحته، وأوقد شعلة مرر أصابعه فوقها متمتما:

- النار حقيقية! لكنني صنعت ما هو أكثر من مجرد تأملها.. استخدمتها على قبضتيّ مع قليل من البنزين! أحرقتهما كي أتأكد من أن حياتي ليست وهما هي الأخرى!

كان الألم حقيقيا ومروعا، ورغم تشوههما أحسست بالراحة أخيرا، هذا التشوه وهذه الآلام حقيقية.. أنا حقيقي ولستُ نتاج هلاوس ومخيلات كائن معتوه حي! لقد حاول الأوغاد إفقادي رشدي، لكنني خدعت الجميع!

ثم ناوله كرة زجاجية متوسطة الحجم هامسا:

- احترس منهم، لابد وأنهم يراقبونك! لا تثق بأحد، ثق بحدسك!

وارتسمت على شفتيه بسمة أثارت ذعر (نادر).. لربما نجحوا في مهمتهم، لربما أصبح (طارق عكاز) مجنونا من حيث لا يحسب!

الفصل السابع عشر

تناول حبة الدواء مع كوب الماء، ثم وضع نظاراته ممسكا بكتاب هو عبارة عن مجموعة أشعار لجبران خليل جبران.. قلب صفحاته حتى بلغ واحدة مثنية الطرف، فابتدأ المطالعة من عندها..

ثم أتاه الصوت على استحياء:

- «**أعظم إهانة تلحقها امرأة برجل قولها له إنها تزوجت منه شفقة عليه لا حبا فيه!**»

رفع الخال (مروان) بصره الضعيف عن الكتاب ببطء، فوجد فتى يتقدم إلى داخل غرفته عبر الباب المفتوح..

- «كلمات (جبران).. أحسنت يا بني!»

تأمل (نادر) بصمت بدن الرجل الواهن الراقد على سرير المستشفى..

خلع الخال (مروان) النظارات مرفقا إياها مع الكتاب على الكومودينو المجاور، قبل اعتداله على السرير قائلا بحيوية وقد أغوته اللعبة الأدبية:

- «**تضحي المرأة بكل شيء من أجل الرجل الذي أحبته، لكنها لا تهتم بمن تثق في محبته لها!**»

- لا، لم أسمع بهذه المقولة!

- خيبت أملي!

- من؟

- (برنارد شو)!

(برنارد شو).. كان الخال (مروان) يذكره ببرنارد شو! ليس من ناحية الشكل، وإنما السخرية الآسرة المتميزة من أعباء الحياة وترهات البشر..

لو كان الخال (مروان) على قيد الحياة.. لكنه اليوم ليس كذلك، مات الرجل الطيب كسائر البشر الذين يتمتعون بالحمق البشري، لم يكابر ولم يعاند، كان يتعامل مع الدنيا ببساطة طفولية، لم يكن طماعا، لم يحاول جمع ثروة بشتى السبل، أصدقاء الطفولة كبروا وتزوجوا وأنجبوا، لكنه لم يفعل، بحث عن مضيعة أخرى للوقت بمواصلة المغامرة حتى لزم فراش المرض، وفي الفراش واصل المطالعة كي يستفيد أكثر من الوقت المتبقي له..

تمنى الاتصال بوالدته ما دام الخال (مروان) في قبره، لكنها لن تتفهم، كما أنه لا يريدها في عذاباته الخاصة، يكفيها ما عانته من وفاة والده..

عليه بالصمود حتى النهاية.. حتى وإن تسببت بدماره!

****

كان يفكر ويفكر وهو يراقب الصور الملتقطة لجثة (حازم)..

صورة لشعره حيث خصلة مقتلعة من الجذور، وأخرى ليده حيث تبدت ثلاث كسور في السبابة والوسطى والبنصر، لمقاومته القاتل ربما، والصور الباقية تظهر الكدمات الناتجة عن الضرب القاسي الذي تلقاه المسكين قبل مقتله..

لقد عامل القاتل صديقه بوحشية مرعبة، هذا ليس قاتلا عاديا! لابد وأنهم الذين فعلوها.. «إدارة ما فوق الإدارة» كما زعم (طارق)!

لماذا الصور؟ ما المطلوب منه؟ مده بالأدلة للبحث عن قاتل شريك الغرفة؟ محاولة إلباسه الجريمة؟

كانت حاله متدهورة حقا، زاد من تدهورها تلك الكرة الزجاجية التي

منحه إياها (طارق).. تذكر ما ذكره عنها:

- «**كاميرا مراقبة متطورة! موضوعة في عشرات الأماكن والزوايا، في غرفتك واحدة حتما، في الحمام، في قاعات المحاضرات والكافتيريا وبكل ركن وزاوية! أنت المقصود بالجريمة المرتكبة حتما، أنت الآن بطل دراسة جديدة وغامضة تتعلق بالسلوك البشري، عنوانها: ماذا لو قُتل صديقي ولم يصدقني أحد؟ لا الشرطة ولا الرفاق ولا..**»

تذكر المقاطعة الهامة التي زادت من ألمه وذعره:

- «**لكن كيف؟ كيف والكل رأى الجريمة تقع؟ كيف والكل رأى وعرف (حازم)؟ كيف باتوا ينكرونه الآن؟**

لا تقل لي إن تلك الإدارة المزعومة غسلت لهم أدمغتهم..»

- «**بل أسوأ!**»

قلب الكرة الزجاجية، الكاميرا، لم يحاول اتخاذ الحيطة والحذر، رفع برأسه متأملا الزوايا الأربعة لغرفته في السقف..

كاد يتقيأ عندما وجد كرات مماثلة في كل زاوية منها! كيف لم ينتبه لذلك مسبقا؟!

فلوح لها بيده متظاهرا بالتماسك، وباستهانة غمغم:

- كشفتكم!

ثم نهض، وأتى بالكرسي صوب الزاوية الأولى..

قال (طارق):

- «**لكل واحد منا منفذ، في الخير والشر سواء! والأوغاد لا يغفلون ذرة من المعلومات المتعلقة بالموضوع المدروس، ستجد الذين من حولك داخل التجربة بشكل أو بآخر، كممثلي المسرحية المكتوبة بعناية، كل شخصية متدخلة في الأحداث بقصد، دراسات أخرى فرعية إلى جانب الدراسة الأساسية التي هي..**»

- «**أنا طبعا!**»

- «ها قد بتَّ تفهم ما يدور.. الشهود الذين رأوا كل شيء! منهم من يحب عائلته ولا يشتري بالمال لصدقه ونزاهته، لكنه غير مستعد للتضحية بمن يحب، الأوغاد الذين يشتري صمتهم بالمال! ستجد الطالب ينكر لأنهم وعدوه بمنحة، والطالبة تنكر لأنهم سينشرون فضائحها عبر الإنترنت! العميد له نقطة ضعف، المشرف له نقطة ضعف، حرِّك مخيلتك! اجعلها تعمل لأقصى الدرجات محاولا تخيل العالم المروع الذي بتَّ تحيا وسطه! لا أحد سينطق، سينغمس الجميع في المسرحية لتحقيق مآربهم أو للذود عن ذويهم أو سمعتهم، غير آبهين أو عالمين أنهم باتوا جزءًا من التجارب العجيبة!»

الأسلاك متشبثة بمؤخر الكرة الزجاجية، لكنه انتزعها انتزاعا، بقوة، كما تجتث العشبة الضارة، بتقزز، بنفور..

و(طارق) يواصل التحدث عبر مخيلته المبلبلة:

- «احذر فهم في كل مكان! لديهم أفراد وأعوان، ليسوا بالضرورة من المحترفين! فالأوغاد يستخدمون دائما مواضيع دراسية لتنفيذ مآربهم، القاتل مجرد موضوع آخر وهو يحسب نفسه منهم، لكنه ليس كذلك، إنه مجرد حجر آخر يحركونه على رقعة الشطرنج في مباراة يصعب التكهن بنتائجها! »

انتزع الكاميرا الثانية..

- «ماذا سيكون شعورك عندما تعلم أن أعينا بشرية باردة تراقب انفعالاتك؟ تصرفاتك؟ ثم يسجلونها في ملف خاص وسري للغاية، أهي الحكومة؟ أم الذين يعبثون بالحكومة؟»

انتزع الكاميرا الثالثة..

(طارق) يناوله صفحة رسم كروكي قائلا بعصبية بالغة:

- «أماكن كاميراتهم في الجامعة اللعينة! قبل دخولي قمت بعمل دراسة لمعرفة أماكنها بالضبط، لا أعلم ما إذا كنت قد نجحت بالتواري عنهم،

أم مستمرا داخل تجاربهم من حيث لا أحسب.. ألا تبا! هم يعلمون بوجودي سلفا، لكنني أحاول التصرف بعقلانية على قدر المستطاع!»

الحذر إذاً! الهرب لن يجدي نفعا فهم يجدونك آخر المطاف.. ماذا لو كان هذا هو هدفهم؟ أن تهرب؟ السيناريو المصاغ لتجربة جرذ المتاهة الهائم على وجهه باحثا عن قطعة الجبن؟ النصيحة هنا لا تُجدِي نفعا للأسف، فقط الحذر رغم ألا فائدة ترجى منه.. أنت الآن داخل المصيدة حتى تحين النهاية المجهولة!

العين في السماء إذاً..

وقبل انتزاعه الكاميرا الرابعة والأخيرة، خاطبها بتهكم جامح:

- كفَّ عن مراقبتي أيها «الأخ الأكبر»!

الفصل الثامن عشر

محاضرة الدكتورة (نسمة) قائمة، فهل يدخل؟

يجب أن يدخل فقد طال غيابه..

طرق الباب، ثم دخل بعد تلقيه الإذن.. فهال الجميع رؤية ذلك الكائن مبعثر الهندام، منكوش الشعر، زائغ النظرات، قنفذي الذقن!

كان يحمل كتبه ويدلف بعصبية مضحكة، بدا كمتشرد لدرجة أن أحد الطلبة صاح باستهزاء سقيم:

- حاوية القمامة بالخارج!

تضاحكوا أجمعين، فيما عدا (سوزان) التي هالها مظهره، و(نسمة) التي طالبت بالصمت وهي ترمقه بنظرات ملؤها التجهم والأسى..

- «هل أجلس؟»

- «تفضل..»

اتخذ لنفسه مقعدا متأخرا، في حين استأنفت الدكتورة محاضرتها عندما تناهى لمسمعها أصوات همهمات ساخطة..

- «ما الموضوع؟»

صاحت طالبة وهي ترمق (نادر) بعيون شذرة:

- أرجو المعذرة، لكن رائحته كريهة!

والتفتت أخرى صوبه قائلة بازدراء:

- ثمة اختراع اسمه..

- صمتا!

كان (نادر) يتأمل الجميع من حوله بعصبية وتحفز للانقضاض، العيون تواصل التهامه بلا رحمة، والألسنة تلتهم سيرته التي كانت حسنة يوما.. فجأة نهض ليصرخ وقد اشتعل كبرياؤه:

- أنتم كلكم أوغاد! تمارسون الرياء والكذب ببراءة الحملان!!

- «يا له من..»

- «فقد رشده ال..»

- «يا لل..»

وتباينت الأصوات، لكن الاستنكار جمع بينها وبكل تأكيد..

- «أنت! بكم ابتاعوا صمتك؟ بسيارة جديدة؟ وأنتِ! هل صوروكِ بوضع فاضح؟!»

- «أيها..!!»

نهض أكثرهم بنية الفتك به، ولم يبال بشيء، بل واصل الصراخ الأعمى كمن فقد رشده تماما وأصابعه تشير إلى زوايا سقف القاعة:

- ها هي ذي الكاميرات اللعينة! في كل زاوية واحدة! أعلم أنكم تراقبونني يا أوباش! أعلم أن الحمقى هنا يتظاهرون بالجهل لأنهم يفتقرون الشجاعة الحقة!

وعاود التلفت إليهم:

- رجل واحد! هذا كل ما أنا بحاجته! رجل واحد أو فتاة برجل أو عشرة رجال! كائن حي لا يزال على إنسانيته يقف على قدميه ويطلعني بالحقيقة! يخبرني أنه يعلم بمقتل (حازم)!

«رجل واحد أمين! فقط رجل واحد..» كما كان الفيلسوف الكلبي (ديوجين) يصرخ أيام الإسكندر المقدوني!

(سوزان) تنهض ببطء مصدوم، أهي غير مصدقة لما تسمعه عن مقتل (حازم)؟ أكانت تكن له مشاعر حقيقية تلك الليلة أم تمثل أمامه فحسب؟
(نادر) يصرخ كمن فقد رشده تماما:
- كان صديقي! ما ذنبه؟ لم يحاول أذية أحد! كان له حرق بليغ.. هنا.. وهنا! بفضل العبث بأعواد الثقاب والغاز.. النار خطرة! لا تمزحوا مع النار والبحر ونصل السكين!
هكذا واصل الصراخ بعقيرة متحشرجة وهو يقف فوق الطاولة ويدور حول نفسه كالمخابيل، فأمرت الدكتورة الجميع بالخروج..
- «لكن يا دكتورة..»
- «إنه مخبول حقيقي..»
- «قد يؤذيكِ..»
- «دعينا نستدعي ال..»
- «**اخرجوا حالا!!**»
الدكتورة الرقيقة الوقورة فقدت أعصابها أخيرا، فتكاثروا على الباب حتى خلت القاعة إلا منهما..
دنت بخطا أبطأ من زحف السلحفاة، كان يواصل صراخه وتهديداته..
ظلت تراقبه حتى نطقت أخيرا:
- أرجوك يا (نادر)..
- لا تترجيني! ترجيهم! هم الذين يتحكمون بمصائر البشرية جمعاء! هم من يطلقون الأحكام الأولية والنهائية!
- لا أحد يصنع ذلك سوى الخالق عزوجل يا عزيزي!
- الخالق؟ الخالق؟!
كررها مرارا وبضعف وتهالك، حتى خرَّ على ركبتيه وانخرط بنحيب يمزق نياط الأفئدة..

دنت أكثر هامسة بحنو:

- عزيزي، هل أثرت بك أفكار بعض الملاحدة هنا؟

مخاطه يسيل حتى لامس الطاولة التي جثا فوقها، وجهه محمر وعبراته تخنقه.. صارت على قيد أنملة منه، فمدت أنامل حانية لتمسح من أسفل جفنيه بعض الدموع..

- «الوهم قد يدمرك يا عزيزي! قد يدمر شابا رائعا مستقبله بانتظاره..»

- «ليس وهما! (حازم) ليس وهما! إنهم..»

- «يتحكمون بمصائرنا؟ أتعاود التجديف؟ الله وحده يتحكم بمصيرك!»

الله! كيف لم يذكره – جل وعلا- ولو لمرة في غمار الأحداث التي أودت به أو على وشك؟ لابد وأن الله يحاسبني على ذلك! على فقدان ثقتي به من.. جديد؟

متى فقدت الثقة بخالقي أصلا؟! يا للهول!!

كان يدرك الإجابة جيدا، لم يكن بحاجة إلى تذكير من أحد، بالأحرى كان يضع تذكارا على معصمه الأيسر، ساعة عريضة تخفي ندبة الحماقة التي ارتكبها في الماضي وكادت أن تودي به!

لقد جرب الانتحار ذات مرة! كان قريبا من النجاح حتى خيل له أن الظل الواقف أمامه هو ظل ملك الموت شخصيا!

تم نقله للمستشفى، والدته نقلته بسرعة جنونية وهي لا تكف عن الصياح والشتائم.. لِمَ فعلتها يا مخبول؟! يا كافر؟! يا ملحد؟!

- «أنا السبب إذاً!»

قالها موشكا على انهيار نهائي.. فرفعت يدا مترددة، قربتها ببطء بعدما حسمت ترددها.. فمست له وجنته برقة..

- «لستَ السبب يا عزيزي.. صدقني!»

- «هم؟ أجل هم! الأوغاد يراقبوننا يا دكتورة، يراقبون الجميع!»

أومأت برأسها إيجابا!

- «أنتِ.. تصدقينني يا دكتورة؟ أنا لستُ مجنونا! الكاميرات! كاميرات المراقبة في كل حدب وصوب!»

- «الكاميرات لصالحك يا (نادر) وصالح غيرك من المرضى!»

نظر لها كمن داس على مسمار صدئ أو سلك كهربي عار.. هل قالت ما قالته أم أنه توهم أنها قالته؟

- «مرضى؟!»

تنفست ببطء، فأدرك أنها على استعداد لرمي قنبلة الحقيقة المُحررة من صمام الأمان:

- أنت لست طالبا، أنت مريض جيء بك لهنا مع عدد من المرضى من مصح الأمراض العقلية.. لمعالجتكم يا (نادر)!

رباه.. لقد انفجرت القنبلة!

الفصل التاسع عشر

الحقيقة.. قد تدفعك في قعر الجنون وقد تنقذك منه..

في غرفته التي ليست بغرفته، وعلى سرير ليس بسريره، رقد بكامل ثيابه وحذاءيه مراقبا بعض شقوق الطلاء الملتصقة بالسقف..

جهاز التكييف مطفأ، هكذا غرق بمحيط عرقي كريه لكي يشعر بالحرارة..

هل يحاول إشعال النار بكلتا قبضتيه كما صنع (طارق عكاز)؟

قد توقظه النار من غيبوبة الوهم الجنونية..

وحديثها.. دكتورة (نسمة)، أكان وهما آخر يضاف لقائمة شخوص مسرحيته؟

هل المرأة اللطيفة حقيقة أم وهم هي الأخرى؟ تماما مثل (حازم)؟ أصابعه، تلاعب بها أمام بصره، أهي حقيقية؟ هل أنا حقيقي؟ هل الغرفة التي أقطنها حقيقية؟ وإذا كنتُ كذلك فهل حقا أدعى (نادر)؟ هل الماضي الذي ترعرع في ذهني حقيقي؟ والدي الميت؟ والدتي الحية؟ الخال (مروان) – رحمه الله- المغامر المثقف؟ أكان موجودًا أم مجرد إفراط في المخيلة؟

تذكر حديث الدكتورة (نسمة) الذي آلمه:

- آسفة يا عزيزي! آسفة على كل شيء! ظننت أن برنامجنا سيكون ناجحا لمعالجتك والبقية، في مكان تمارسون به حياة طبيعية وإن كانت مصطنعة!

- الكاميرات!

هذه الجامعة مختلفة عن باقي الجامعات، فهي مزودة بكاميرات مراقبة دقيقة للغاية من أجلكم أنتم!

- ولماذا تراقبوننا؟

- لأنكم مرضى! مراحل مرضكم متقدمة ذات خطورة مبينة، فكرنا باستخدام وسيلة جديدة للعلاج النفسي، فطورنا بتمويل ضخم هذه الجامعة..

- المسرح الذي نمثل عليه نحن!

قالها بسخرية أليمة، فوضعت يدها على يده قائلة برفق:

- لأجلكم، لأجلك! لأجل شفائكم من أوهامكم المخيفة.. كحازم الذي تحسب وجوده وبأنه قتل!

- (حازم) كان موجودا، يتنفس ويمرح قبل أن يقتلوه..

- في رأسك فقط يا عزيزي! في مخيلة جامحة قد تدمرك إذا ما استسلمت لها!

- أنا مدمر سلفا، خصوصا إذا ما استسلمت لكلامك المخبول..

- صدقني يا (نادر)! صدقني، أنتم مجرد مرضى تتباينون في حالاتكم النفسية لا أكثر، هذه ليست جامعة حقيقية، وهؤلاء ليسوا طلبة بحق، ونحن لسنا..

- دكاترة جامعات؟ ما أنتم؟ أطباء؟

- صدق أو لا تصدق، لكن أجل! نحن أطباؤكم! وأنا الطبيبة المسؤولة عن حالتك هنا، أنا التي اخترتك من بين كل المرضى لأكون المسؤولة عنك مذ اطلعت على ملفك، مذ طالعت محاولتك الفاشلة تلك لقتل نفسك!

صاح باستهانة:

- انتقيتني كحيوان أليف إذاً! فأر تجارب! هذا أكثر من رائع!

- أريد مساعدتك كما يحاول كل زميل لي مع مريضه هنا، نحاول جعلكم تعايشون المناخ الطبيعي لطلبة الجامعة، نحاول استعادتكم في مجتمعنا!

- وقد فشلتم!

- لم نفشل، الأمل موجود يا (نادر)، بإمكانك الآن تحري الصدق في حياتك، لا تستسلم لأوهام مبعثرة صنعتها مخيلة مشوشة!
بدا غير مصدق لما ينصت له.. أنا مجرد مخبول سابق؟ وفأر تجارب حالي لأطباء مصح أمراض عقلية؟ ماذا عن يوم غد؟ هل سأصير رائد فضاء يرغبون بإرساله للمريخ بدلا من قرد أو كلب؟
ماذا عن الأسبوع القادم؟ الشهر القادم؟ السنة القادمة؟!
العقاقير، حتما العقاقير هي السبب في كل الذي وقع..
سيهرب! لا حل سوى بالهرب! لكن لا! تظاهر بالخضوع والاستسلام أمامها، والليلة استغل فرصة شظايا العقل المتناثرة داخل جمجمتك، احتمل ما يمكن إنقاذه ولذ بالفرار إلى حيث المنزل..
أنت لازلت تذكر المنزل.. أليس كذلك؟

****

حين عاد للسكن قابل السنجاب (هيثم)، حيث رفع الأخير يده قائلا بابتسامة جذلة:
- ستكون هنالك حفلة الليلة، تمام الساعة الثامنة! أسمعت بها؟
- وما المناسبة؟
- تأسيس الجامعة! الطعام سيكون بالمجان، والفتيات سيكن حاضرات! البس أكثر ثيابك أناقة و.. واحلق ذقنك واستحم بالله عليك! رائحتك كرائحة..
- شكرا لإخباري!
شكرا.. عليك ألف لعنة! فقد منحتني ميعاداً مناسباً لتنفيذ خطتي!
عندما ولج الغرفة اكتشف أمرا وبسرعة.. الكاميرات عادت لأماكنها فوق!
أمر غير باعث على الحيرة والاستغراب، من الطبيعي أن.. الصور!!
المظروف!! قفز على درج المكتب وفتحه بالكامل حتى أسقطه أرضا،

فتبعثرت القرطاسية والأوراق.. لكن ما من مظروف صور!

اللصوص! سرقوه حتما! تبا لغبائه!

«ولربما لم يفعلوا يا مختل المصح العقلاني!»

نفض الأفكار من رأسه بأرجحة عنيفة، لطم صدغه كما تفعل قردة الشامبانزي هامسا بعذاب:

- الرحمة!! الرحمة!!

«إذاً فتلك هي الحقيقة؟ مجرد مختل؟ الكل مجانين! شلة الأنس و(سوزان) و(عاطف) و.. (طارق)!»

- «لا أعلم!! لا أعلم!!»

«لاعجب أنه مريض بالبارانويا! اللعين! زرع بنا الشكوك حتى يصيبنا بجنونه!»

- «ربما!! ربما!!»

«لم يدرك التعس أنه حديث مجنون إلى مجنون آخر يفوقه جنونا!»

الهرب، الهرب من هذا العالم، الهرب من كل شيء.. ماذا عن الحقائب؟ دع الحقائب! فلتذهب الحقائب للجحيم! ابحث عن ثياب تناسب الحفل المزعوم، وتناسب هروبك من هنا!

وتذكر أن «الأخ الأكبر» يراقبك دائما!

هكذا إذاً، خطة معقولة، حمدا لله أن الجنون لم يشل تفكيري بأكمله.. حمدا لله..

وثب من فوق السرير.. فشعر بالدم يتحول إلى صقيع في عروقه، في عاموده الفقري.. إنشلت أفكاره وأطرافه للحظات راقب خلالها ذلك المظروف الجديد المدسوس أسفل بابه!

الفصل العشرون

$$\sqrt{1 \times 1} + \frac{1}{3} = 21 + 24 = 45$$

ظل يتأمل المسألة في تلك الصورة الفوتوغرافية الملتقطة للوح قاعة الحواسيب، حيث دونت وقت وقوع الجريمة.. إنها بين أنامله، بإمكانه استشعار أطرافها الحادة كشفرة الحلاقة! هذه الصورة اللعينة ليست وهما، وسيتشبث بها حتى يتضح له كل شيء.. كل شيء!

ونظر من حوله، الكاميرات الأربعة تراقبه كأعين وحش إغريقي خرافي..

رفع بالصورة نحوها صائحا:

- إذا كنتُ مجنونا كما تزعمون فما تكون هذه بحق الله؟!

لماذا لم يباغت مرسل المظروف؟

الحق أنه بلغ حالة صار معها أكثر جبنا ورهبة من المخاطر الخارجية التي قد يواجهها، لم يعد يثق بالعالم الخارجي، فضل الاختباء على المواجهة، لقد صار يتفهم موقف (طارق) الذي صنع من نفسه شبحا متواريا عن الأنظار..

ألا تبا! هو لا يعلم شيئا عن مدى تورط الدكتورة (نسمة) بالأمر، لكنها متورطة حتما بشكل أو بآخر..

ما هذه المسألة؟ غير متراكبة حتى بالنسبة لجاهل في علم الرياضيات، كما لو كانت مرسومة! لوحة تشكيلية معقدة!

أحضر ورقة وقلم، متأملا الكاميرات، وبغيظ همس:

- لا بأس، سأجاريكم في لعبتكم السقيمة هذه!
جلس على طاولة مكتبه معاودا تدوين المعادلة، باستخدام آلة حاسبة ابتدأ العملية المذكورة، كيف يكون ناتج معادلة الجذر والضرب وكسر الثلاثة = مسألة جمع 21 و24 ؟ ثمة خلل واضح!
جلس على الكرسي صافن الذهن، هرش شعره، ذقنه.. هذه مسألة لعينة، الهدف منها إثارة مزيد من جنونه، هذا هو المشروع إذاً، كيف نصيب شخصا عاقلا بالجنون المطبق!
سلاح جديد؟ أهي طريقة جديدة للخلاص من الشهود في قضايا قد تحبس أصحاب المناصب الهامة وراء القضبان للأبد؟ أم أنه مشروع عسكري؟ ربما مشروع متعلق بعملاء المخابرات..
ارتجف عندما ساقته أفكاره إلى تلك الفجوات العميقة، ما له ومال المخابرات؟ طالع المسألة بعينين متسعتين وقد بدأ الأمر يخيفه، لا عجب أنهم يراقبون الجميع، لا عجب أن أذرعهم تعمل كأذرع الأخطبوط!
ربما كانت منظمة جاسوسية! هذا هو! منظمة تجسس خاصة تعمل لحساب الحكومة بتمويل سري.. المسألة! المسألة! تلك الاستنتاجات لن توصله لشيء..
تنفس بعمق، فكر، هؤلاء القوم لا يراسلونه عبثا، فقد أرادوا إعلامه بالجريمة، والآن يرسلون له مسألة رياضيات عجيبة، فما الغرض؟
قال بصوت مسموع:
- إلا لو كانت دليلا على القاتل!
هذا هو، فقد دُونت في مسرح الجريمة، القاتل دونها بأمر منهم حتما، ثم قاموا بإرسالها له لاختباره، نظرية أخرى، لكنها الأقرب للمنطق..
لم يمارس «اليوجا» في حياته، لكنه الآن يمارس طقوسا أقرب إليها، تنفسه ينتظم، أطرافه بوضعيات الاسترخاء.. يجب أن أثق بقدراتي أكثر، يجب أن

أهدأ وأفكر باللغز على طريقة (26) !

- **«26 رجلا دخلوا المطعم، فوجدوا 21 كرسيا، ومع ذلك جلس كل واحد منهم على كرسي، فكيف تمكنوا من فعل ذلك؟»**

الخال (مروان) كان محبا للألغاز، رأسه امتلأ ألغازا وأحاجي مسلية، وقد كان (نادر) يكره الألغاز ويكره أكثر إظهار جهله بها لأنها طفولية..

قام بعمل عشرات الحسبات المنطقية وغير المنطقية دون أن يظفر بجواب واحد مقنع، وفي النهاية أعلن استسلامه..

- «غلب حماري!»

ضحك الرجل بمرح قائلا بشغف:

- هذه مشكلتكم يا طلبة العلم! حتى وإن تفوقتم لا تتمكنون من التفكير بشيء من البساطة والانسيابية! الأمر لا يحتاج إلى حسبة لوغاريتمات معقدة..

كان اللغز سخيفا، مجرد تلاعب بالألفاظ.. سِت (أي امرأة) و20 رجل، هكذا صار المجموع 21! يا للسخافة!

تنهد باسما لتذكره الموقف الطريف، أحيانا لا نصدق كم الحل بسيط بالنسبة لمشكلة عويصة، علينا أحيانا التفكير على طريقة 26 !

هكذا فكر مطالعا بين السطور، استرخى أكثر، لغز طريف، لا تتذكر (حازم)، لا تتذكر (سوزان)، لا تتذكر (نسمة) أو (داسم) أو (طارق)!

وفي الختام، عندما فتح (نادر) عينيه، بدا تعبير وجهه ينم عن فهم يلوح بالأفق! لم تكن الصور بحوزته، صور جريمة مقتل (حازم) طبعا، لكنه يتذكرها جيدا..

لماذا أرسلوا له صورا معينة من أجزاء معينة؟

صورة خصلة مقتلعة من الجذور..

صورة 3 أصابع مكسورة..

صور لآثار ضرب..

صنع من أصابعه المتشابكة مقعدا لذقنه..

هذه ليست مسألة رياضيات، بل وصف للجريمة المرتكبة!
خصلة مقتلعة من الجذر: جذر العدد 1
3 أصابع مكسورة: كسر العدد 3
آثار الضرب: ضرب العدد 1(والمقصود بالعدد 1 حازم نفسه حتما)
أمعقول أن يكون هذا هو الحل؟ المعضلة أضاءت كوميض كاميرا التصوير برأسه!
إذا كان هذا الربط الوحيد ما بين الصور والمسألة، فما علاقة العملية الحسابية: 21+24= 45 ؟!
شيء ما مألوف في هذا كله، شيء قد طالع عنه في أحد الكتب، ربما إذا..
أخرج من أحد أرفف المكتب أحد كتبه المفضلة على الإطلاق، معجم الخرافات والمعتقدات الشعبية في أوروبا الذي استعاره من مكتبة الجامعة، وأدمن مطالعته لما يحويه من معتقدات مثيرة وغامضة، فقلب صفحاته حتى بلغ الباب المتعلق بالأعداد في المعتقدات الغربية الخرافية..
يؤكد ذلك المعتقد بصدد تلك الأعداد أن لكل منا رقما مرتبطا به، ويتم حساب ذلك الرقم بتحويل الأحرف التي تكون اسم الشخص واسم عائلته للأرقام المطابقة لها، ثم القيام بعملية جمع لذلك كله، وعليه:

S ، J ، A =1

T ، K B =2

U ، L C =3

V ، M ، D =4

W ، N ، E =5

X ، O ، F =6

Y ، P ، G =7

Z ، Q ، H =8

R ، I =9

استخدم اسم (داسم عواد) كمثال، فإذا تم تحويل الاسم لأرقام تكون النتيجة:

15 = 4+5+1+1+4 = DASEM
11 = 4+1+5+1 = AWAD

15+11= 26 (يا لها من مصادفة طريفة!)

فإذا رغبنا بمعرفة العدد المطابق لداسم عواد، جمعنا الرقمين المؤلفين للعدد 26 هكذا: 6+2= 8 حيث يذكر في المعجم أن 8 عدد الشجاعة والمثابرة، وهو ما لا يبدو أنه منطبق على (داسم)!

المهم أنه استخدم هذه الطريقة على الأسماء التي عرفها في حياته الجامعية، (سوزان جميل) نتيجتها كانت: 23+19= 42 هكذا 2+4= 6 وهو عدد الشخص الواقعي الودي صاحب الإحساس الميال للانسجام والابتكار!

النتيجة النهائية لاسم (طارق عكاز) كانت: 29+14=43

3+4= 7 ! العدد السحري، العدد المحير، وفي المرجع مذكور أنه عدد العظمة والحظ والسر الخفي!

ثم لم يجد نفسه إلا وهو يحاول اختبار أحرف اسمه لمعرفة العدد الخاص به، فكانت النتيجة كالآتي: 21+24= 45 !!

5+4= 9 !

ابتلع ريقه بصعوبة بالغة لأنه جفَّ مرة واحدة! وبسبابة مرتعدة قليلا وضعها أسفل المعلومات المدونة عن الرقم تسعة، قرأ: عاطفي، متسلط، كتوم، ذكي وقوي شخصية، لا يجارى دائما في مبادراته!

الفصل الحادي و العشرون

الساعة الآن الثامنة وثلاث دقائق، الحفلة بدأت إذاً..

بإمكانه من بعيد تبين الأضواء وأصوات الصخب والموسيقا الصادحة بالأرجاء، الجميع سعيد ويحتفل رغم أن المناسبة كانت مجرد تأسيس الجامعة اللعينة!

أم تراه المصح اللعين؟

تأمل الرسم الكروكي الذي خطه (طارق) في الورقة التي أعطاه إياها، إذا صحت نظريته سيتمكن من إيجاد مخبئه، حيث أن الدوائر تمثل مواضع الكاميرات في الرسم، وهي -حسب بحث (طارق)- موجودة في كل مكان وزاوية تقريبا..

ثم لفتت نظره بقعة صغيرة في المبنى الرئيسي للجامعة، ففي الرسم ممر طويل يمر بمكتب القبول والتسجيل ويتجاوزه، حيث مربع سجِّل عليه حرف C ، وقد كان المربع الوحيد بلا دوائر..

نظريته كانت أن (طارق) مختبئ في ذلك البناء، ولربما قصد بالحرف C كلمة: CLEAR ! وعلى العموم تلك مجرد نظرية يسهل التأكد منها..

بالنسبة لطارق ثمة عدة طرق لتجاوز الكاميرات نهارا للتسلل إلى مخبئه، فهو خارج حسبة إدارة ما فوق الإدارة - أو أن هذا ما يعتقده-، أما

عنه هو فالأمر مختلف، إذا ذهب إلى هناك سيعلم «الأخ الأكبر» على الفور، ستعلمه «العين في السماء»! فهو موضوع رئيسي لدراساتهم، وبذلك سيكشف لهم عن مخبأ الفتى..

لماذا رسم له الخارطة على هذا النحو؟ هل تعمد أن يقوده إلى مقره السري؟ أم هي مجرد استهانة بذكائه؟

كان يفكر ويفكر ويشحذ همته ومزيدا من الأفكار المرتجلة وهو سائر في الممر الطويل.. أنا لا أملك ما أخسره!

تجاوز مكتب القبول والتسجيل، سار حتى بلغ آخر الممر، باب أمامه مباشرة، وآخر على يمينه يفتح ويغلق ببطء عن طريق مفصل هيدروليكي..

نظرة أخرى على الرسم أكدت له دربه، الباب على اليمين.. فتحه، فوجد ممرا جديدا، كما هو ظاهر على الخارطة، بلا كاميرات، مؤدٍ إلى سلالم معدنية متجهة لأسفل..

عبر الممر وهبط السلالم، فوجد نفسه أمام باب مدون عليه: STORE

لم يتردد أكثر، ففتح الباب وولج..

وهكذا وجد نفسه في عالم (طارق عكاز)!

****

كان جالسا على صندوق خشبي، منشغلا بفك الشاش عن قبضته اليسرى كي يستبدله بآخر نظيف..

شرد بصر (نادر) المحدق بالقبضة المحترقة، يا له من منظر مقشعر للبدن!

أيشعر بالألم؟ بالطبع لا فقد احترقت الأعصاب عن بكرة أبيها.. إذاً، عندما أشعل النار بهما، هل شعر بالألم؟

توقف عن طرح الأسئلة السخيفة في ذهنه بنحنحة، فرفع (طارق) وجهه اتجاهه..

- «كنت أعلم أنك ستأتي!»
ترك له حرف C عامدا متعمدا إذاً! فتبسم بشحوب مجيبا:
- كان يجب أن أزورك..
- مستجدات؟
- بمنتهى الإثارة!
- هات ما عندك..
تأمل (نادر) زوايا المكان، فراش ومعلبات، مذياع يعمل على البطارية وكشاف..
لكن ما لفت نظره أكثر هو كم القصاصات المعلقة على جدارية، كلها تتحدث عن قضية مقتل فتاة جامعية وهروب المشتبه به في الجريمة..
قال (طارق) معاودا لف قبضته بشاش نظيف:
- حين يصير اسم اللعبة الهروب يتغير كل شيء في حياتك، أنت تتحول إلى كائن آخر لا يعرف من الحياة سوى التعرق والنوم في أماكن سرية كالأقبية.. لا يحلم إلا برعب الإدانة وإن كان بريئا، بالمشنقة إذا ما كانت تهمته القتل..
عندما تهرب يتغير مذاق الطعام والشراب والنوم، لا شيء كما اعتدته سابقا، اللقمة في فمك تلوكها بقرف وعلى وشك بصقها، الشراب لتعوض العرق الذي فقدته.. النوم! بنصف عين، كل جلبة معناها الاستيقاظ التام والتوجس.. فما بالك بشخص ينام في مخزن يعج بالجرذان؟
قالها بتهكم، فنطق (نادر) أخيرا:
- إنهم يعلمون أنك هنا! بالأحرى كانوا يعلمون منذ البداية!
- حقا؟ يا للمفاجأة!
لكنه توقف عما يقوم به بوجه مطرق للأرض من شدة اليأس..
قال (نادر) مواصلا التحديق بالصور:

- علينا الذهاب الآن..
- إلى أين؟
التفت إليه..
- «سنواصل ما يريدونه حتى النهاية، هذا ما ينتظرونه مني ومنك!»
لكن إلى أين؟
إلى سكن الطلبة من جديد.. حيث خلا من الجميع ما إن سمعوا بحفلة مقامة تحضرها طالبات جميلات، لابد وأن الأمر من تدبير «الأخ الأكبر» حتما.. ممر السكن، ثمة كاميرات طبعا، لكن (طارق) لم يمانع الظهور بوجه مكشوف هذه المرة.. غرفة (1)، (2)، (3)..
- «ماذا سنفعل؟»
كذا تساءل (طارق) بعصبية، لكن (نادر) بدا هادئا.. (4)، (5)، (6)..
توقف (طارق) مكررا تساؤله:
- إلى أين تأخذني؟
- إلى حيث تكمن الحقيقة!
- كيف تعلم أنها الحقيقة.. بحق؟!
- ثق بي..
- ولماذا أثق بك؟
- لأني وثقت بك!
راقبه (طارق) بصمت، كان متوترا وله كل الحق..
(7)، (8)، (9).. هنا!
طرق (نادر) الباب، فلم يجبه سوى صمت مطبق، حرك المقبض فوجد الباب موصدا بالمفتاح..
- «اكسره!»
- «أأنت متأكد؟»

كان متأكدا، ربما شبه متأكد.. ألا تبا! لقد حان وقت المجازفة بكل شيء! بضع رفسات قوية دفعت الباب جانبا، فولجا بحذر..

- «بحق جهنم!!»

كان ملتصقا بالجدار كالسحلية، نظرات المكر الكريهة والمطلة من عينيه انقلبتا تحفزا ضاريا للانقضاض المسعور، فجمد (طارق) هامسا:

- (داسم عواد)؟!

- أغلق الباب!

فسارع (طارق) إلى إغلاقه، في حين تأمل (نادر) غريمه قائلا باستهزاء:

- كنتُ متأكدا.. منذ البداية!

- ماذا تقصد يا صاح؟ ثم كيف تقتحم..

- أنت قاتلهما معا!

أتاه صوت (طارق) الذاهل:

- قاتلهما؟!

- أقدم لك القاتل الذي سلبك لذة النوم والأكل والشراب!

القاتل الذي سلبك لذة الشعور بالأمان!

(طارق) يتحول من عدم التصديق إلى الغضب المصعوق، نظرات قاسية تبدت في عينيه وهو يهمس:

- كيف؟!

(داسم) يرمقهما بكره ويده متوارية وراء ظهره..

و(نادر) يردف غير مكترث:

- لا أعلم ما إذا كانت الحقيقة، ولكن سأقول كل ما توصلت إليه، والكل هنا سيكون شاهدا على ما سأقوله..

كان يقصدهما وكاميرات المراقبة بالطبع! ولم يخف على (طارق) وجودها معلقة في سقف الغرفة..

قال (نادر):

- لقد حاولوا إلصاق جريمة جديدة بك يا (طارق)!

- ماذا تقول؟!

- قد طالعت قصاصاتك حول مقتل فتاتك، فوجدت أنها قتلت بذات الأسلوب الذي قتل به (حازم)، خصلة من الشعر، ثلاثة أصابع مكسورة.. أسلوبك في القتال! لا أعلم ما إذا كنت تستخدمه دائما، لكن الأمر لفت نظري وبشدة في الكافيتريا عندما استخدمت ذات الطقوس القتالية مع (سائد)، الشعر ثم الأصابع المكسورة!

- هذا ليس دليلا على قتلي لأحد..

- لا أعلم ماهية الأدلة التي دسوها لك هناك كي يلصقوا بك جريمة مقتل (رنا)، لكنهم تابعوك إلى هنا حيث أعدوا لك مكيدة جديدة، بطلها الحالي أنا! بذات الطريقة قتل (حازم)، هم أرادوني أن أكتشف ذلك كي أتأكد من أنك القاتل، ربما لدفعي إلى قتلك، في ذات الوقت الذي بدأت به تجربة أخرى جديدة، تجربة أقرب للميتافيزيقا، دفعي للجنون!

إذا ما صح حديثك عنهم، فقد استخدموا وسائلهم الرادعة مع الجميع، حتى الدكتورة (نسمة) حاولت دفعي إلى تصديق بأننا داخل مصح نفسي، ما دامت قد شهدت الجريمة فهي متورطة بالأمر معهم، لكن ليس بدافع المال.. لقد هددوها هي الأخرى، لكنهم اشتروا خدمات هذا اللعين بالمال حتما!

- «هذا سخف!»

قالها (داسم) باستهانة، فأخرسته لكمة وحشية من قبضة (طارق) المضمدة!

- «ولا همسة!»

تفل الشاب البغيض بعض الدماء على أنامله، ثم مررها بين أسنانه كأنما يخشى فقدانها! فتماسك (نادر) مواصلا حديثه:

- كانت لنا – أنا و(حازم)- عادة التسلل إلى قاعة الحواسيب للدردشة عبر

مواقع «الإنترنت» مع الفتيات..

- «هذا طريف»!

فاستلزم الأمر لكمة أخرى على وجه (داسم) لإسكاته!

قام (نادر) بدعك جبهته وقد ابتدأ يشعر بالتوتر، ثم واصل حديثه بشيء من غلظة:

- لا أعلم كذلك ما إذا كانت تلك المغامرة خارج نطاق حسبة الذين يراقبوننا أم أنها ضمن مخططهم، المهم أنني التقيت الفتاة التي حادثها (حازم).. ثمة ما لم يغب عن ذهني، (سوزان) كانت شاهدة على وقوع الجريمة، صحيح أنها لم تر الجثة، لكنها رأتني بموقع الجريمة، ولم تحاول أثناء اللقاء أن تسألني عن الحكاية بالضبط، ولربما أحكمت إدارة المراقبة تطويقها على الجميع بسرعة البرق، فالتزموا الصمت أجمعين!

أما (سوزان) فصارت من أطراف اللعبة وشخوصها الرئيسية، أكاد أكون متأكدا.. ثم هنالك الصور! من أرسلها ولماذا؟

كان الهدف من الصور اكتشافي بأن (طارق) هو قاتل (حازم)، لكن في اللحظة الأخيرة انقلبت الخطة انقلابا جذريا بإرسال مسألة الرياضيات العجيبة.. المسألة تخبرني أن أسلوب القاتل = اسمه!

اسم القاتل؟ إذا كان هذا صحيحا فهو أنا، معنى هذا الالتزام بخطة إثارة جنوني.. أما إذا كان الحل = (طارق)، فمعناه أن هدفي الانتقام لحازم من (طارق)! ولكن ماذا لو اكتشفنا العدد السحري للاسم؟ هل يقودنا هذا إلى دليل جديد نحو القاتل؟ الواقع أنك الوحيد يا (داسم) الذي كنت تراقبني في المكتبة يوم استعرت المعجم، ترى هل أنت بذلك المكر لاستنباط أسلوب الأعداد ومعابثتي به؟ أم أنهم هم كالعادة؟

ردَّ (داسم) ساخرا:

- أنا أصنع أي شيء من أجلهم يا صاح!

قبض (طارق) عنقه بعنف مغمغما من بين أسنان تكظم غيظه بتعسر:
- بل من أجل المال يا لعين! والنتيجة أنهم قاموا بتسليمك لنا كي نصنع بك ما نشاء! اصرخ كما تشاء أمام الكاميرات، وأراهنك أنهم لن يحركوا شعرة لإنقاذك من انتقامنا!
ضحك (داسم) مخاطبا (نادر) بازدراء:
- أحقا؟ من القادم إذاً ليشاركنا هذه الحفلة الطريفة؟
تمكن (نادر) من رؤية ظل أسفل فرجة الباب، فأشار لطارق الذي بدت ردة فعله بسرعة الرياح ذاتها، عندما فتح الباب مباغتا، وجذب شخصا للداخل أطلق صيحة رعب أنثوية..
ذهل (نادر) لأقصى الحدود رغم شكوكه السابقة بها.. فتاة تمسك مظروفا صنع من ورق الدشت، فتاة راقصها في حفلة عيد ميلادها، فتاة بدأ معها أرق حكاية رومانسية!
- «أنتِ؟!»
أفلتها (طارق) قائلا:
- أخبرتك ألا تثق بأحد، الكل متورط بشكل أو بآخر.. أنت نفسك قلتها!
تأملته بعينيها الدعجاوين، كانت ترتجف من شدة الخوف، فنطق بعقيرة مبحوحة:
- أتحسبينني أحاول إيذاءك؟!
قال (داسم) بازدراء كريه:
- تفحص المظروف الذي بحوزتها يا (هولمز) زمانك!
خلص (طارق) المظروف من أصابع (سوزان) التي همست مرتعدة:
- لم يكن لدي خيار آخر!
- والدردشة على الإنترنت منذ البداية؟
- هم!
هم! هم! أيقطنون الهواء كميكروبات لعينة أم ماذا؟!

- «ماذا في المظروف؟!»

اكفهر وجه (طارق) مخرجا عددا من الصور الملتقطة.. نظر (نادر)، فأبصر أسوأ كوابيسه على الإطلاق.. الفتاة التي تعلق قلبه بها، واقفة ومعها كاميرا، وأين؟ بالقرب من جثة صديقه وشريكه بالسكن!

بدأت بالانتحاب مدمدمة بذل وانكسار:

- أرغموني على فعل ذلك! هددوني بذبح والدي وخطف شقيقتي الصغرى! لم أملك الخيار يا (نادر)! أرجوك!

قاوم الدوار الذي داهمه.. هي محقة، ماذا تستطيع فتاة ضعيفة أن تصنع بمواجهة إدارة ذات أذرع أخطبوطية تطال الجميع؟

- «كيف يتصلون بكِ؟»

رفعت وجها مغطى بالماء المالح والمخاط، وعبر عملية شهيق وزفير متواصلة تمكنوا من فهم كلماتها:

- البريد الإلكتروني، كل يوم الساعة العاشرة يتوجب علي فتحه..

- كيف صدقتِ الأمر؟ ماذا لو كانت مزحة؟

- أرسلوا صورًا لوالدي وشقيقتي بعلامات مخيفة على العينين والعنق، نلت علامة F في امتحان علم المنطق رغم أدائي الجيد به، سألت الدكتور عن السبب، فأجابني بوجه متعرق وخوف لا حدود له: هم الذين أجبروني على فعلها! فإما الانصياع لهم ونيل علامات ممتازة على الدوام، أو..

كانت تتحدث كالدائخة، وجهها سقط على صدرها تدريجيا، أراد (نادر) سؤالها عما أصابها، ففوجئ بها ترفع وجها بملامح جديدة ذات غموض، وبنبرة جديدة اكتنفها دلال عجيب همست:

- أنا.. صنعت كل ذلك من أجلهم!

- من أجلهم؟!

- من.. أجلهم.. هم.. هم..!

لقد جُنت! تبادل النظرات على عجلة مع (طارق) الذي أبدى حيرة مماثلة، في حين قال (داسم) بسخريته المعهودة:

- الكل يصنع المستحيل لأجلهم، فهم الملوك الجدد!

- أنتم.. مجانين!

هل قال: الملوك الجدد؟!

نظرت الفتاة إلى (داسم) باسمة بخواء، فمنحها اللعين قبلة في الهواء!

قالت بانتشاء وقد شرد بصرها:

- «بعد أن فرغ هذا الجزار من عمله قمتُ بالتقاط الصور كما أمروني!»

راقب (داسم) طارقا وهو يعقب بسخرية ذات مغزى:

- ولم تكن تلك أول مرة لي!

كان هذا أكثر من كافٍ، فرفع (طارق) جسم (داسم) من عنقه، وبضراوة رجل بدائي صرخ:

- أنت قتلت (رنا)!! وستدفع الثمن من دمائك!!

في تلك اللحظة، أخرج ما كان الماكر يخفيه وراء ظهره.. بدت سكينا غريبة الشكل، على شكل نصف جناح وطواط، لها أربع فتحات لدس الأصابع..

- «حاذر»!!

لكن الطعنة كانت سريعة تنم عن احترافية باستخدام السكاكين، تلقى (طارق) الطعنة بين الضلوع، فتهاوى كجدار متهدم!

(نادر) يتلقى جرحا بليغا على خده الأيسر وضربة سريعة كعضة الأفعى على كفه اليمنى المفتوحة، الفتى كان خطرا حين يصير السلاح الأبيض طوع أمره، لذا وجد (حازم) نفسه أمام وحش دموي لا يرحم..

و(سوزان) تتحول إلى ذراعي (داسم)، الذي تشبث بشعرها مُحكما تطويقها كخروف معد للذبح.. في حين مرر نصل سكينه بحقد على عنقها هامسا بنذالة:

- هدية عيد ميلادك.. مع تحياتهم يا حلوة!

الفصل الثاني و العشرون

رأى (نادر) شلالا دمويا ينهمر من أوردة عنقها المقطوعة، فغشيته غمامة ظل مروعة جعلت بدنه يهتز، ورأسه آخذ بالالتفاف كأنما ولج دوامة هوجاء.. الخال (مروان) عندما غطوه بالملاءة يوم أسلم الروح.. (حازم) عندما قتل بطريقة ولا أشنع..

(سوزان) غارقة بالدم القاني!

الضبع أو الذئب أو المجرم الحقير يلوذ بالفرار، (سوزان) ماتت، لا تضيع الوقت، الحقير مرر سكينه على عنقها جيدا، يجب الإمساك به، الحفلة، المراقصة الناعمة، الهمسات الساحرة، القوام المتمايل والعطر الذي التصق به يوما.. كيف تركها تضيع منه بتلك السهولة البائسة؟!

لكنها معهم! هي اعترفت أنها صنعت ذلك لأجلهم! لكن لا، ثمة غموض خارق بالأمر، شيء أعمق وأخطر من نظرية (طارق) المتعلقة بالرشاوي والتجارب والتهديدات وإدارة ما فوق الإدارة!

انطلق في أعقاب القاتل، كان قد أبصر قبل خروجه من الغرفة صاحبه يحاول النهوض من مكانه، صورة سريالية لعنقاء تقوم من أشلاء الرماد غزت عقله بإلحاح، (طارق) يجيد الاعتناء بنفسه..

تذكر الركض عبر الممر، تذكر سرعة (داسم) الجنونية وسكينه الذي رشق بعضا من دمائها على البلاط النظيف المصقول..

تذكر خروجهما للهواء الطلق معا، واحد إثر واحد، وأصوات الصخب والموسيقا المنبعثة من مبنى قاعة الكافيتريا ..

أما أكثر ما ذكره وعلق بذهنه إلى أبد الآبدين تلك اللحظة التي ارتفع بها صوت أزيز ساعته........ ليس الأزيز فحسب!

****

حين دوى الانفجار بدا المشهد مذهلا ومروعا بآن واحد، حتى أن (داسم) توقف عن الجري وقد تعلق بصره الماكر – الذي استحال الآن ذهولا وذعرا- بالقاعة التي انفجرت عن بكرة أبيها، بكل طعامها وشرابها وطلابها! الموسيقا توقفت، الدخان الأسود والنيران ارتفعا للسماء كوحوش جهنمية تقتات لحوم البشر المشوية.. (داسم) قال كالمصدوم بنبرة تمكن (نادر) من تبينها بوضوح تام:

- بحق جهنم!!

رباه.. لقد انفجرت القنبلة! قنبلة حقيقية هذه المرة!

طلبة الجامعة باتوا الآن جثثا محترقة! كلهم! ربما.. لم تحضر شلة الأنس الحفل، ربما.. انشغل كابتن فريق السباحة بالتدريب، ربما.. ربما فضلت الدكتورة (نسمة) البقاء في منزلها!

ولربما صار الجميع جثثا محترقة!!

أكان هذا..؟!

الساعة! نظرة منه إلى شاشتها أكدت الأمر، ساعته تشير للتاسعة!

أكان هذا مخطط الحقراء منذ البداية؟ عملية إرهابية؟! ماذا عن السلوك البشري ومحاولة دراسته إذاً؟

تلاقت نظراتهما معا، (داسم) و(نادر)، فصاح الأول:

- هذه الكارثة أكبر منا يا صاح! أكبر من الجميع!

ثم واصل الركض، فلم يحاول (نادر) اللحاق به..
دار على عقبيه وركض عائدا للسكن، الممر.. الممر! آخر الممر!!
هناك.. آخر الممر.. حيث الباب الآخر المؤدي إلى حاويات القمامة.. أبصره.. بابتسامته الطفولية، والحرق الناجم عن العبث بأعواد الثقاب والغاز!
كان حقيقة، بل هو وهم! بالتأكيد وهم.. الموتى لا يُبعثون من القبور! المقتول لا يخرج من المشرحة مرتديا هنداما أنيقا ومعطفا جلديا أسود اللون! تبا للعقل المتأرجح! سيقودني للجنون حتما!
لم يكن وحيدا، شخص آخر كان واقفا معه، الكهل الأصلع! الرجل الذي يحمل هاتفا نقالا في يده، ويزعم أنه راغب بالاطمئنان على أخلاق شريك ولده في السكن!
مشى (نادر) ببطء ويده تقبض موضع القلب، تعصره، خفقاته متلاطمة بقوة مسموعة.. الرؤية باتت أدق وأوضح، إذاً فهو شبح!
الشبح يبتسم له بسمة غامضة، ثم يخرج مسرعا من ذلك الباب برفقة الكهل..
انتظر! انتظر أرجوك! هل قالها أم ترددت بين ألغاز العقل وثنيات القلب؟
هرول بخطوات عرجاء متعثرة، باب الغرفة رقم (9) مفتوح ليريه جثة (سوزان) ممددة على السرير، و(طارق) متهالك بمكانه..
دخل متسائلا بصوت مخنوق وأطرافه لا تهمد عن الارتعاد:
- لماذا وضعت جثتها على السرير؟
قال والدم يتناثر من فيه:
- لستُ أنا!
بالتأكيد ليس هو، يجب أن يطرح سؤاله وإن كان الأرعب على الإطلاق في كل ما حصل:
- «من إذاً؟»
- سمعتُ صوت انفجار، ماذا حدث يا..

- من يا (طارق) بحق الله؟!

- لا أعلم! فتى ما، ظهر على عتبة الباب، دخل ورفع الجثة، فوضعها على السرير، ثم..

- ثم ماذا؟!

- طلب مني إعطاءك هذه..

مظروف آخر، من ورق الدشت! كان ملوثا بدماء (طارق) المسكين، يجب إسعاف الفتى وإلا قضى نحبه.. لا.. يجب مطالعة فحوى المظروف أولا! فضَّ المظروف بسرعة وجفنه الأيسر يرف بعنف.. رسالة، ممن؟ منه؟ لا يمكن! لا يعقل! الموتى لا يراسلون الأحياء!

«عزيزي (الجانب المعتم)!

سامحني أيها المهندس المستقبلي على المتاعب الجمة التي سببتها لك، لكن قافلة «المقر الأعظم» انطلقت، ولابد أن تصير ضمن ركابها ولو جررت بحبل، هذا ما اقتضته مصلحتنا، خصوصا وأنك سليم من ناحية البدن والعقل والأخلاق!

لا تتساءل كم من دماء أريقت، حاول ثانية قراءة ما بين السطور، علك تستنبط ما نحاول القيام به، ليست القصة جريمة قتل أو تفجير إرهابي، فلكل حرب ضحاياها!

معذرة لتوريطك في هذا كله، وأملي أن تظل حيا حتى تكتمل اللوحة المذهلة وتتمكن من رؤيتها عن كثب، باهرة جميلة! هذا العالم سيلاقي تحولات جذرية عما قريب، تحولات في العقائد الأخلاقية مثل الحب الأخوي والحقيقة والحرية والمساواة.. نحن نعمل على ذلك منذ أعوام طوال! قريبا جدا ستشهد بنفسك نتائج عملنا المبهر، سمه تحولات خارقة في

الحياة، لا شيء سيظل على حاله! عالمنا سيتحول إلى شيء لا يوصف بكلمات! فنحن على وشك بناء مملكة عظمى على أرض مسالمة! نظام عالمي جديد بالأحرى! ولن يندثر أبدا!

Novus Ordo Seclorum

إذاً.. حافظ على حياتك يا شريكي القديم! لا تبحث عن أجوبة لأسئلة سخيفة حول رؤيتك لي مقتولا، فأنا كالساحر الذي لا يفشي أسراره أبدا! لكنني مدين لك باعتذار طفيف بالنسبة لموضوع (ساندي) هذه.. خمن من كانت؟

أرجوك لا تغضب مني! وعلى العموم (ساندي) الحقيقية تتحرق شوقا إلى لقياك، فتمرن على كيفية مخاطبة أميرة حقيقية.. اتفقنا؟

يجب أن أطلعك على مجريات الأمور من الآن فصاعدا، إذ سنكون على اتصال.. أعدك!

أما الآن فقد صرتم ثلاثتكم – أنت و(طارق) وحتى (داسم)- موضع اختبار جديد وهام، أترك لكما – أنت و(طارق) – إحداثيات النقطة التالية، أما (داسم) فسيأتي دوره عما قريب!

أمامك الآن حوالي عشر دقائق لتلوذ وصاحبك بالفرار قبل وصول الشرطة ورجال أمن الحكومة الحالية، حافظ على نفسك أرجوك حتى ميعاد لقائنا التالي المرتقب..

وتذكر أن الأخ الأكبر يراقبك دوما!

أميرك الأزلي..»

(طارق) يحدجه بنظرات غير مفهومة المغزى، يقول محاولا النهوض ثانية:

- ماذا؟!

و(نادر) يحاول الاستيعاب كي يتمكن من إفهامه، لكنه عاجز تماما، إنه

شعور الذبابة التي علقت في شباك العنكبوت، فما كان منها إلا أن استسلمت لمصيرها المحتوم..

هل قال «نظام عالمي جديد»؟ هل أتى على ذكر أميرة حقيقية تنتظره؟ هل قال «الحكومة الحالية»؟!

هل جن العالم أم هو المجنون؟

خفَّ لمساعدة صديقه الوحيد في تلك المرحلة، مغمغما بصوت شبه مبحوح:

- علينا بالهرب من هنا حالا!

الفصل الثالث و العشرون

(طارق) يقود سيارة مسروقة، سيارة لا بأس بموديلها ولونها، لدكتور، ربما من أولئك الذين أمسوا من قاطني القبور..

إصابته لم تردعه، كان ينطلق بأقصى سرعة تاركا (نادر) في حالة الذهال التي أصابته..

يمنة، يسرة، يمين الميدان، طريق طويل..

- «يلزمني مستشفى!»

بخواء طالعه (نادر)، ببصر لا يرى سوى الحقائق المخيفة..

- «لا، هم بانتظارنا حتما!»

وبهمس حزين همس مطالعا عبر النافذة الزجاجية بشرود:

- إدارة ما فوق الإدارة!

(طارق) يقاوم، يا للفتى الجسور! يجب إسعافه وإلا فقدت رفيقي الوحيد في هذا العالم الجديد الحافل بالبارا نويا المخيفة!

- «انعطف هنا، اسلك ذلك الدرب.. من هناك!»

لم يكن (طارق) بحال جيدة، لكن (نادر) اعترف بأن الفتى أقوى منه، ترك له القيادة واكتفى بتوجيه الإرشادات.. سامحني يا صديقي، فكري مشوش كأن قنبلة (حازم) تم زرعها هنالك لتنفجر!

أكانت تلك الاضطرابات مجرد اختبارات؟ أم شيء أكبر؟ لاشيء مترابط!

وجريمة القتل الزائفة؟ والانفجار والممالك التي تحدث عنها (حازم)؟! ماذا كان ذلك كله؟!

حقا إن (حازم) ليس إنسانا عاديا، إنه الخوف بأم عينه، من أفظع الشرور وأقواها، (حازم) صاحب الأذرع الأخطبوطية الممتدة لتلف كل كائن حي، تبلغه أينما اختبأ.. ما حقيقته؟ وما مدى قوته؟ وإلام يهدف بالضبط؟

- «توقف هنا!»

العجلات تثبت السيارة بعنف، تتزحلق، تسكن.. ترجل (نادر) منها متأملا المشهد الذي أشعره ببعض الخلاص..

المنزل! منزلي الحبيب! لكم أوحشني منظره!

خفَّ إلى الباب بغية تقبيله، فعلها شاعرًا بالعبرات تكاد تخنقه.. منزلي حيث نشأت! حيث درست وأكلت وشربت ونمت بأمان!

- «أماه!! أماه!!»

طرقات كاللكمات، صاخبة! منفعلة! اشتقت لوجهكِ الحبيب! اشتقت لكل ما يمت بصلة لعالمكِ الخالي من الزيف.. اشتقت لحضنكِ وقبلاتك!

الباب يفتح، تماما كما تركها.. بشعرها الناعم الجميل، بملامحها العذبة المتزنة التي خلت من زينة النساء منذ وفاة والده في ذلك الحادث الأليم..

- «أماه؟!»

المرأة الحبيبة تحدجه بنظرات ولا أغرب، تطالعه.. ببرودة! ببرودة حقا؟ لا.. بصره يخادعه، عقله يخادعه.. لا تصدق أن والدتك بإمكانها إنكارك!

- «نعم؟»

يا للكابوس السخيف، حتى أنه تبسم، حتى أنه ضحك لهذه المزحة الرديئة!

- «أماه.. اشتقت لكِ!»

- «ومن حضرتك؟»

- «أماه.. رباه! لو تدركين ما عانيته!»

انقلبت ملامحها لاحتداد حقيقي وهي تدمدم باستياء مرعب:
- لا أعلم من تكون بالضبط يا فتى، لكن إن لم تغادر في التو واللحظة فسأضطر إلى إبلاغ..
- أماه! كفاكِ مزاحا بحق الله!
- كفَّ أنت عن مناداتي ب»أماه»! ابني الوحيد انتحر! قطع شرايينه بموس حلاقة! ليت الحياة تنتهي والقيامة تقوم! ليت الأرض تتوقف عن الدوران..
ليت بركانا يثور، ولتلتهم الحمم كل شيء إلى درك الجحيم بلا ندم أو أسف!
(حازم) أيها الأخطبوط الماكر! أذرعك الكريهة بلغت منزلي؟ بلغت فؤاد والدتي؟!
حتى أنك تعلم بما أصابني في الماضي الأليم؟!
أرحل؟ أرحل إلى أين؟ ألا تبا للدنيا بأسرها!
سرينات الشرطة تدنو، الأصوات الأمنية المميزة لأبواقهم ترتفع أكثر فأكثر، نفير سيارة (طارق) يتصاعد بجنون.. يجب الرحيل الآن!
ألقى بنظرة أخيرة عليها، لا، لن ينتهي الأمر بتلك البساطة أبدا..
استخرج محفظته من جيبه، نبش بأصابع منفعلة من فرط العصبية حتى استخرج شيئا ألقاه بحدة بين قدميها..
والآن حان وقت الهرب!
المرأة تراقبه دونما انفعالات، تراقب ركوبه السيارة، تراقب ابتعاده السريع.. ثم تتأمل ما رماه أرضا قبيل التقاطه.. كانت مجرد صورة فوتوغرافية مهترئة، لخالها الميت (مروان) ولها..
ثم يتوسطهما في الصورة فتى وسيم باسم، ترقرق الدمع في عينيها لمرآه، فهمست بوجل وهي تضم تلك الصورة الثمينة إلى صدرها:
- سامحني يا بني الحبيب! سامحني!
الباب يفتح بالكامل.. عدد من الرجال بأسلحة مخفية يخرجون، يتبعهم

فتى يماثل ابنها في العمر تقريبا، يرتدي معطفا أسود اللون، وتعلو وجهه بسمة طفولية آسرة خففت من وطء الحرق الظاهر على عنقه..

برفق مد يده، حيث التمع في بنصره الأيمن خاتم ذهبي، يمثل نقشه مثلثا بداخله تلك العين المتألقة بأشعة الشمس.. عين حورس الفرعونية للحماية من الحسد والأرواح الشريرة ومن الحيوانات الضارة، عين القوة الملكية المستمدة من الآلهة حورس ورع!

أزاح خصلة من شعرها عن أذنها، وبهمس الثعابين تمتم:

- لقد فعلتِ الصواب يا سيدتي.. صدقيني!

تبلدت نظراتها فجأة، وبعمق همست كالمأخوذة:

- أصنع كل شيء.. لأجلكم!

- أحسنتِ!

ثم وبنبرة خافتة ماكرة تمتم:

- والآن ما عليهما سوى الهرب والاختباء!

قالها متأملا سيارتهما التي صارت سرابا في الأفق..

«خبيني عندك خبيني دخلك يا نونو!»

****

في أحلامي المضطربة أشاهد حفلة صاخبة لفتيان يراقصون فتيات، غير آبهين لمحاضرات يوم غد ومتاعب إيجاد بحث تخرج مناسب، أسمع موسيقا ساكسفونية يصاحبها قرع طبول صاخب.. الكل سعيد، الكل مبتهج، لا أحد مكترث لمصاعب الحياة الجامعية، الكل يحاول النهل من متعها فحسب!

في أحلامي المضطربة التي يمكن تسميتها بالكوابيس أراه واقفا.. بمعطفه

الجلدي الأسود، بآثار حرقه وابتسامته الطفولية التي صارت الآن أفضل تشبيه لابتسامة الشيطان! أراه ويراني، أحاول اللحاق به لكنه يبتعد كنسمة الهواء، لا أحد يشعر به وهو ينسل، يلوح لي بأصابع مفتوحة يبدأ بضمها تدريجيا إلى قبضته.. خمسة.. أربعة.. ثلاثة.. اثنان.. واحد!

الانفجار يمزق الجميع فيما عداي، أكاد أشتم رائحة الدخان الأسود المشبع بروائح الشياط لأجساد بشرية محترقة عن بكرة أبيها..

أكان (حازم) الشيطان نفسه أم مجرد عميل من عملائه؟

في أحلامي المضطربة، أقف وسط الدمار والأشلاء، جميع من عرفتهم موتى الآن، أقف وسط ضحايا الموت غير مصدق، غير مستوعب، أتمكن من رؤيته بمنجله العريض اللامع الشبيه بحصادة القمح، ومعطفه الأسود المرفرف، تلوكه أمواج الزمهرير اللاسعة..

لا أستطيع اللحاق به فأنا لا أستطيع الطيران! كان (حازم) يحلق في الهواء كالعنقاء الأسطورية.. كطائر جارح أشبع نهمه من الدماء والأشلاء.. يلوح بمنجله يمنة ويسرة وصوته يتردد كصدى منبعث من صارخ عابث يختبئ بين الجبال، لا يبلغك سوى تردد صداه:

احترس حتى ميعاد لقائنا التالي المرتقب!!

أعدك يا (حازم)، من سويداء قلبي.. أعدك!»

...To Be Continued

Opening

قال (رَمَّاح) مُستعيراً سيجارة من علبة المقدم:

- منطقتي غابة ظاهرها الرقي، وباطنها شريعة الغاب القائمة بين مداخل بيوتها وشوارعها القذرة..

البقاء دائما للأقوى، في الحي، في الزقاق، بين مكبات النفايات، حيث الدراجات النارية المنطلقة بسرعة البرق، والأسلحة البيضاء التي لا ترحم الجلد البشري الواهن، وقوانين الأقوياء المفروضة دائما على الضعفاء..

كانت تلك بيئتي القديمة التي اعتدتها وألفتها..

لا أصدقاء سوى (سكبو)، وهو اسم تدليل عرف به في منطقتنا، كان محبوبا من قبل الجميع، لكن آفته الوحيدة كانت صداقته معي!

لم أكن مجرما منحل الأخلاق، لكن غالبية فتية منطقتنا كانوا كذلك.. كان (سكبو) يمت بصلة قرابة لبعضهم، ولأجل صلة الدم تلك نصبوا أنفسهم حماة عليه، ولربما كانت صداقته لي سبب عدم تماديهم الزائد معي، كانوا يكرهونني ويحلمون باليوم الذي أتشاجر به معه كي يصنعوا معي ما يريدون، لكن ذلك اليوم كان بعيد المنال عليهم..

في حَيّنا وحده سجلت إحصائيات الشرطة في الآونة الأخيرة مقتل 7 فتية أبرياء، منهم من هو دون سن الثانية عشرة، قضوا كلهم بطعنات السكاكين بسبب مشاجرات كلامية حادة، أحد القتلى طُعن نهارًا وعلى مرأى من الناس الذين لم يحاولوا التدخل خوفا على أنفسهم، بينما طعن آخر لمجرد أنه حاول فضَّ شجار بين شابين أرعنين!

أحب (سكبو) الصعلكة وكأنها مذهب على درجة عالية من التنوير، فاعتنقها محولا إياها إلى شيء كلاسيكي يبعد كل البعد عن الشيء المبتذل والمتداول بين فتية حَيِّنا..

صحيح أنه صنع مثلما يصنعون، امتطى دراجة نارية، وسرق سلسلة «سيفون» من صندوق الطرد في حمام المدرسة، قبل أن يستبدلها بمطواة رخيصة عكف ليلة بطولها على شحذها لتصير ماضية..

لكنه فيما بعد تحول إلى فنان بوهيمي ، كان يعشق ترك العلامات التي تدل على وجوده، شيء أقرب إلى توقيع المخرب الضال.. قد يكون صليبا نازيا، وقد يكون نجمة خماسية محاطة بدائرة السحر الأسود أو الأحمر، وقد طلب مساعدتي كي يصير الرسم عالي الجودة وبألوان متنوعة، فكنت أوافقه أحيانا وأحيانا أخرى أطلب منه أن يدعني وشأني!

يحب (سكبو) التسكع معي، وأفضل دائما التسكع معه.. لا أستطيع تخيل نفسي سائرا بأمان من دونه، قبل مصاحبتي له كان الصعاليك يتربصون بي في كل زاوية وركن، إذا خرجت من البقالة ببيض كسروه، وإذا كان طحينا نثروه، وإذا كان خبزا داسوه.. أحيانا أخوض نزالات ضدهم عندما يحاولون ضربي من دون سبب، لكنها تنتهي لصالحهم دائما - فالكثرة تغلب الشجاعة-!

كانوا يسخرون مني بشتى السبل القبيحة، يطلقون ألقابا ونعوتا وصفاتا بهيمية علي، يعايرونني بشقيقي المعاق (وضاح)، وأنا ساكت لا أستطيع الرد بسبب كثرتهم وكثرة سكاكينهم..

وبعد صداقتي بسكبو صار الوضع مقتصرا على بعض الشتائم لا أكثر، لكنني لم أنس يوما إساءاتهم إلي..

ثم جاء يوم التمرد على قوانين الصعاليك، وسخريات الهمج، وترهات الحمقى، اليوم الذي تحولتُ فيه إلى ثائر متمرد على كل شيء، لا يميز بين الصواب والخطأ، ولا الحقيقة من الخيال!

المتمرد

الفصل الأول

اقترف (رَمَّاح المُسامِح) أول أخطائه الكبرى عندما كان في الحادية عشرة من عمره، فقد ضبطه والده وهو يسحب سيجارة من العلبة التي تركها في غرفة نومه، وعاد لاستعادتها عقب برهة..

قال والده وهو يقرصه تلك القرصة الأليمة اللئيمة في جانب فخذه:

- تدخن أيها الصعلوك؟

- لا! إنما سأبيعها فقط!

هكذا نال فوق القرصة لطمة، دائما يعاقبه بيده اليمنى، تلك اليد التي تحمل في بنصرها الأيمن خاتما من الزبرجد الأخضر الحقيقي، ومن حسن الحظ أنه تعلم درسه سريعا، فلم يكرر الخطأ مجددا إلا عقب رحيل والده.. طوال سنوات عمره كان يظن ذلك الخطأ سيكون خطأه الأوحد، لكن درسه القاسي الآخر الذي تبينه فيما بعد ألا وجود للشخص المعصوم من الأخطاء، وبخاصة في واقعنا المتعثر الذي يمنح المرء فرص ارتكابها من حين لآخر.. للمرة الثانية تطأ قدماه أرضية السجن المعتم ثقيل الهواء، ما كان بالأمس لهوًا بالمخيلة أمسى اليوم واقعا كابوسيا مخيفا يكاد أن يثير صدمة.. لماذا هو هنا؟ مكانه ليس هنا.. على الأقل هذه المرة!

ثمة جسد شبه ساكن احتل الفراش الخشن الوحيد الموجود بداخل الزنزانة،

فجلس (رَمَّاح) على الأرض بالقرب من الفراش، مانحا ظهره للجدار مشقق الطلاء..

- «لا تجلس هناك..»

سدد نظراته التي بالكاد ترى من جراء العتمة تجاه ذلك الجسد الذي بات يتكلم الآن، وبنبرة تحد واضحة ردَّ عليه:

- سأجلس حيثما يحلو لي..

إن حكاية السجين الذي يحاول دائما التفرد بالسلطة قد باتت مألوفة ومبتذلة للغاية، حتى بالنسبة لوافد جديد بلا خبرة حقيقية، ومن حسن الحظ أن (رَمَّاح) لم يكن غض اللحم على الإطلاق.. كان إنسانا قاسيا..

أراد الشجار بكل السبل المتاحة، شعر أن خلاص روحه المثقلة بهواء المكان الرطيب والمغلق كامنا في لكمة ماحقة، يوجهها نحو وجه هازئ متعجرف وشامت لكل ما يحيط به كي يفقده ذلك كله..

ولكن ما إن سمع نزيل تلك الزنزانة يقول:

- كما تشاء، لكن دعني أحذرك.. أحيانا لا يدعونني أخرج لدورة المياه، لذا فإنني كثيرا ما أتبول هنا، وتحديدًا في ذات المنطقة التي تجلس أنت عليها!

حتى وثب من مكانه كجندب مذعور، وقد تفهم الآن فقط سر تلك الرائحة البهيمية التي حسبها أمرًا مألوفا داخل كل زنزانة كئيبة وقذرة..

سمع صوت ضحك أثار استفزازه، فكاد يهاجم صاحبها لولا سماعه يقول:

- معذرة، لكنني هنا لوحدي منذ مدة طويلة لذا..

ولم يكمل لأن موقفه واضح جلي، كان معذورًا، بل إن (رَمَّاح) قد أشفق عليه!

كان صوت محدثه مألوفا لحدٍ غريب، ووجد (رَمَّاح) نفسه يحاول تبين ملامح زميل الزنزانة ذاك، لكن الأخير تخفى بالعتمة جيدًا، كما أن ذراعه التي توسدها أخفت نصف ملامحه المخفية أصلا!

- «هل من مشكلة يا زميل؟»

صوت زميله خرج متحشرجا، بدا بحق مألوفا لأذنيه، لقد سمع هذا الصوت من قبل، ولكن أين؟

تساءل (رَمَّاح) متناسيا موضوع الصوت المألوف وجلوسه مكان البول الجاف:

- منذ متى وأنت هنا؟

- كما أخبرتك قبلا، منذ مدة طويلة..

- ولماذا أنت هنا؟

- لا أدري، ربما يتوجب عليّ أن أكون في مكان آخر!

- أتقول بأنك بريء؟

- لم يعد ذلك مهما اليوم، ثم من يدري ؟ لربما أكون كذلك أو لا أكون!

- بإمكانك أن تكون إما صادقا أو كاذبا..

- بالنسبة لمن؟ لنفسي؟ للحكومة؟ لك؟ ما الفارق في كل الأحوال؟

ونفخ الهواء الساخن بمرارة من فمه، قبل تساؤله هو الآخر وقبضته تدق الأرض دقا:

- ولماذا أنت هنا؟

- لأني أستحق!

- جميل أن تقر بذلك!

- أتوقع الخروج قريبا، فهي فترة تأديبية..

- جميل أن تكون متفائلا..

- لستُ كذلك، لم أكن كذلك يوما، لكنني صادق على الأقل مع نفسي والآخرين..

- إذا كنت صادقا حقا فأنت مظلوم يظلم نفسه باستمرارية..

- وما الفارق؟ ثم أني أقريت باستحقاقي ذلك، إذاً فلست مظلوما..

وتنهد (رَمّاح) متجها لزاوية جديدة من زوايا السجن بعيدا عن الفراش، وقبل أن يجثو تساءل بشك:

- هل لبيت نداء الطبيعة هنا أيضا؟

- انتقيت بقعة نظيفة هذه المرة، هنيئا لك!

جلس لحاجته الماسة لذلك، وبمجرد أن ارتخت أوتار ساقيه من عناء الوقوف، خيل له بأن غمامة غمه قد انقشعت..

همس وهو يهرش برفق ما فوق جفنه الأيسر:

- أشعر باحتقار غريب يملأ كياني..

- لنفسك أم للسادة الذين زجوا بك إلى هنا؟

- لا أعلم، لكل شيء ربما.. لكل ما في الدنيا!

- إذاً فأنت على الطريق القويم، تهانينا!

- ماذا عنك أنت؟ تتحدث كالذي لا يملك ما يخسره..

- أصبت، أنا «تنبل» بالمعنى الحرفي للكلمة، لكن ما حكاية الفترة التأديبية؟

- إذا أجبتني عن سبب وجودك هنا أخبرتك..

استغرق زميل الزنزانة الغامض مدة قبيل إجابته:

- وضعت بعض القرطاسية داخل جيبي في إحدى المكتبات وضُبطت متلبسا!

- إذاً فأنت تستحق أن تكون هنا!

- وهل قلتُ غير ذلك؟

- بالتأكيد! بل وأخذت تتحذلق وتفلسف الأمور..

- وما الذي قلته تحديدا؟

- لا أذكر، مزاجي غير رائق للتذكر..

- أو أني لم أكن أفلسف شيئا، وكنت أنت تتوهم فحسب!

- من الواضح أن السفسطائية العقيمة هي وسيلتك للترويح عن نفسك هنا!

- ربما كنت محقا.. سيجارة؟

- إذا تكرمت!

- معذرة، لم أتوقع أن تقبلها!

- ماذا تعني؟

أجاب زميل الزنزانة بأريحية دون أن يظهر الإحراج أو الخجل في نبرة صوته:

- لكل سيجارة قيمة هنا، كما لو كانت كل سيجارة عبارة عن قطعة من الروح مستقلة بذاتها.. لم أتوقع أن تكون مدخنا، لذا عرضتُ عليك واحدة مجاملة لا أكثر!

أرجو المعذرة لكن سجائري أهم لدي من روحي ذاتها!

- هنيئا لك بسجائرك.. يا مغفل!

قال (رَمَّاح) آخر ما قاله بنبرة خفيضة، ثم أغمض جفنيه محاولا النوم..

- «فليكن ما يكن..»

- «هل قلتَ شيئا يا زميل؟»

- «لا شأن لك..»

- «وهو كذلك!»

وأشعل سيجارة ابتدأ تدخينها بتلذذ، فشعر (رَمَّاح) برغبة عارمة في ضربه والاستيلاء عليها.. أراد وسيلة ما للتنفيس، كانت أزمة اكتئاب حادة مع عديد من الأفكار السوداء، لذا هو في أمس الحاجة للتنفيس..

فكر أيضا في أمر هذه السجائر التي لم تصادر بعد! قبل أن يدخل فتشوه خارجا وأخذوا حتى ساعة يده، فمن أين لهذا الأخ بالسجائر؟

لم يشعر إلا وواحدة ملقاة في حجره، وسمع باستغراب صوت زميله يقول له محاولا استعادة أواصر المودة:

- كنت أمازحك فحسب، هاك علبة الكبريت..

وقذفها له، فالتقطها (رَمَّاح) بيد واحدة ممتنا.. ذات النوع الذي يدخنه لحسن حظه!

أشعل سيجارته هو الآخر متسائلا:

- متى ستخرج من هنا؟

- بعد شهر..

- مبارك إذاً..

- سأسافر في جولة سياحية إلى بلد أوروبي، ذلك أول ما سأصنعه لدى خروجي من هنا!

- هل تعمل؟

- أملك.. متجرًا للمواد العازلة!

- كيف؟

- عوازل حرارية، كيماويات صناعية، مواد طلاء..

- أقصد ما دُمتَ مقتدرا هكذا فلماذا سرقت القرطاسية؟

- ربما كان السبب داء السرقة! أحيانا أسرق المجلات وقطع الحلوى رغم أن ثمنها في جيبي..

- كان لي صديق قديم يهوى تلك العادة، ولكن لم يحدث أن ضبط وهو يسرق، كان له حظ الشيطان.. أتمنى لك الشفاء العاجل يا صاح!

- تبدو لي طيبا وذلك يثير فضولي حقا، ما الذي صنعته كي يجلبوك بسببه إلى هذا الجُحر؟

- أيتسع صدرك لحكاية؟

- بكل تأكيد..

وظهر في إيماءاته ونبرة صوته شغف الاطلاع على سر مثير، فابتدأ (رَمَّاح) السرد واجما:

- أعرف في منطقتنا تاجر خردوات متزوج، إنه رجل طيب متدين حليم المعاملة، ومنزله يبعد عن حانوته مسافة شارع..

لمحتُ شابا يتوقف بسيارته بعيدا عن منزل التاجر، ترجل من السيارة وسار حتى بلغه، وبكل بساطة مدَّ يده كما لو كان يحاول التيقن من أن الباب مفتوح، ولما وجده كذلك عجَّل بالولوج للداخل!

- تريد القول أن زوجة ذاك التاجر..

- كان هذا انطباعي الأول لما رأيته، وقد كان بمحله تماما!

- وذهبت للتاجر في حانوته لاطلاعه على تلك المصيبة؟

- بل اقتربت من منزله أكثر محاولا التيقن من صدق مخيلتي، وإذ بالشاب يخرج إليّ فجأة وكأنه يراقبني عن كثب! سألني بفظاظة عما أريد فسألته عن التاجر، أجابني أنه غير موجود، فسألته عمن يكون هو.. كان وقحا وأحمقا لما ردَّ بأنه شقيقه، وبعصبية هوجاء أمرني بالانصراف وإلا استدعى الشرطة، فأخبرته بأني لن أتزحزح قبل مجيئهم، فقد نجح باستفزازي، فثار معلنا أنه سيطلبهم على هاتفه النقال أمامي..

- وهكذا وصلت المساعدة، أو لنقل بالأحرى مساعدة ذلك الشاب!

- بالضبط! كانوا كلابه الحارسة التي ألقت بي هنا لأنهم يمثلون القانون..

- حكاية جميلة ذات عبرة!

- تلقيت عددا من الصفعات والركلات، فرددت عليها بكل ما أوتيت من قوة..

- وهكذا صارت تهمتك جاهزة..

قالها بتهكم تام، ثم قام بإطفاء عقب السيجارة التي أنهاها أخيرا في راحة كفه اليسرى المبسوطة، فقال (رَمَّاح) ساحبا من سيجارته نفسا آخر تخديرا لأعصابه:

- لطالما بهرتني هذه الحركة، ألا تشعر بألم؟

تأمل زميل الزنزانة راحة يده حيث الأثر الذي خلفه عقب سيجارته،

وبوجوم أجاب:

- بتاتا!

وغطى بصره بساعده مريحا ظهره بالكامل على الفراش غير المريح..

- «إن هذه الزنزانة آمنة فعلا!»

أثارت تلك الجملة استغراب (رَمَّاح) قليلا، فقد شعر أن زميله قصد بأن الزنزانة تقيهما شرور العالم الخارجي! ولربما لم يكن ذلك مقصده على الإطلاق، لكنه يعرف بأنه لن يسأله..

طال صمتهما لفترة، فأدرك أن الزميل مستغرق في سبات عميق..

خدش بأظافره الأرضية المتسخة كأنما يحاول تنظيفها، ثم تنهد بهم ورأسه يستند إلى الجدار..

الفصل الثاني

قال الصوت البالغ بعمق أثار رهبته:

- كن مستعدا اليوم، خذ تركيزك التام معك..

عندما بلغ الثامنة عشرة من عمره، أخذه خاله (حمزة الأسد) كي يحتفلا بعيد ميلاده في أحد منازل المناطق النائية..

كان الجميع مرتديا السواد، وفي غرفة مقفلة تم فتحها لدى مقدم الرجل، وجدا بانتظارهما جثة عارية لفتى يصغر(رَمَّاح) بسنة، فوضع الخال يده على كتف ابن أخته قائلا له:

- قد طالعت وتعلمت، واليوم جاء ميعاد التنفيذ..

- تريدني أن أكفنه بنفسي؟

- ولوحدك من دون مساعدتي..

نظر الفتى إلى جثة الفتى، فانتابته رهبة مبهمة كما لو كان مقبلا على زيارة العالم الآخر..

وقبل خروج الخال أشار إلى دلو الماء والاسفنجة قائلا:

- أتم العمل وبيِّض وجهي أمام الخلق، والويل لك إن أخفقت، فنحن لا نمزح في أمور الموت..

عندما تفرغ من عملك قم بطرق الباب كي أفتح لك..

وأغلق الباب بالمفتاح عقب خروجه..

هكذا تحولت الرهبة لخوف خالص، ومن ثم إلى رعب، رعب كاد يدفعه للصراخ الهستيري..

بعدها استكان.. وببطء السلاحف اقترب من الجثة، إن خاله لا يمزح، وغضبه العاتي أرعب من وضع تلك الجثة الهامدة..

بلغ الجثة عقب دقيقة كاملة، فجثا على ركبتيه هامسا وعيناه مغمضتان:

- مجرد مخلوق ميت..

كانت الجثة مغمضة العينين ساكنة، بجوارها ثلاثة أثواب بيضاء تنتظر تكفينها بها..

تمتم بالبسملة سريعا محاولا مداراة ارتباكه.. كان الميت فتى جميلا، وعندما تنبه (رَمّاح) لذلك ركبه أسف لبعض الوقت..

- «يا لها من خسارة يا صاحبي..»

بلل الاسفنجة بالماء والصابون، وطفق يمسح الصدر بعناية متسائلا:

- ترى كيف مت؟ حادث سيارة؟ جريمة قتل؟

هل كانت لديك طموح؟ أتمنيت أن تصبح طيارا أم مهندسا؟

توقف بغتة عن العمل منكسا رأسه، وغطى وجهه بكفيه هامسا كالمنتحب:

- لا أقدر!

ثم أجهش بالبكاء الحار!

بكى لدقيقة كاملة، ولدقيقة أخرى ردد عقله بأسى:

- إنه مجرد واحد من ملايين العباد!

أخيرا هدأ، فالتقط الاسفنجة من على صدر الجثة بهدوء كأن شيئا لم يحدث، وبرقة تمتم:

- أرجو المعذرة!

استأنف العمل من جديد، بصمت، بدا كالشارد في آفاق ملأى بالغموض والأسرار، وكلها متحدثة عن خفايا الموت..

وبعد قليل تصبب جبينه بالعرق كما لو كان يجري عملية جراحية دقيقة.. قال بصوت مختنق:

- الصبر يا (راجي)! نكاد أن نفرغ! أتعلم؟ كان من الممكن أن تظفر بفتاة جميلة.. خسارة! لابد وأن فتيات كثر قد حلمن بوجهك الوسيم!

استعمل بعد أن انتهى ذات الاسفنجة كي يمسح بها جبينه، وتبسم قائلا وهو يتناول أول الأثواب:

- والآن، حان وقت الأناقة!

رفع الجثة بحرص، وقام بإسناد الرأس على ركبتيه برفق مغمغما بخشونة:

- عاوني قليلا هنا.. شكرا!

تصاعدت طرقات صارمة على الباب بغتة، وسمع (رَمَّاح) صوت خاله يزمجر قائلا:

- ماذا تصنع بالداخل؟ هل انتهيت؟

- دقيقة أخرى..

- ثانية..

سارع (رَمَّاح) بإلباس الجثة الثوبين الآخرين على عجل وهو يقول:

- للأسف، علينا الإسراع يا (راجي)..

وعندما فرغ تراجع للخلف متأملا الجثة، كما لو كان رساما يتأمل تحفته الفنية التي أنهاها للتو..

هرش شعر رأسه قائلا ببسمة حزينة:

- هل قلت بأنك وسيم أيها الأمير؟ حقا إنك كذلك!

انفتح باب الحجرة فجأة في تلك اللحظة، ووقف على عتبته الخال (حمزة) متأملا صنيع ابن أخته بالجثة.. دنا للتأكد والتمحيص، كان الاهتمام بادٍ عليه وهو يقوم بذلك، في حين وقف (رَمَّاح) مطأطئا رأسه..

أخيرا نهض خاله من جوار الجثة المكفنة قائلا ببسمة ارتياح:

- قمتَ بعمل جيد..

وربت على كتفه مردفا بنبرة مطمئنة:

- هلم بنا فالرجال آتون لآخذ الجثة بعض لحظات..

نظر (رَمَّاح) إلى صديقه الصامت للأبد، وتساءل:

- كيف مات؟

- مات ميتة ربنا..

- وماذا كان اسمه؟

- (عصام)، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته..

- آمين..

- والده مقدم بالشرطة، رجل كفء بحق، من الرجال الذين يحتفظون بعواطفهم لأنفسهم..

توجها صوب الباب والخال لازال يتحدث، كان يثني على حسن صنيعه، لكنه لم يكن ينصت له بالمرة..

التفت قبل مغادرة الحجرة للجثة مبتسما بسمة حزينة، في حين تكفل عقله بالنطق:

- «وداعا يا (راجي)، أتمنى أن تحصد التوفيق في رحلتك الأخيرة!»

****

لم تكن تلك وظيفة الخال (حمزة)، كانوا فقط يستدعونه كونه الأكفأ لأداء مثل تلك الأمور المقبضة، ولربما لأنه لا يتقاضى أجرا أيضا!

أطلقوا عليه الأسد تيمنا بأسد الإسلام وسيد الشهداء (حمزة بن عبد المطلب)، فقد كان قلبه ميتا، والإقدام على أكثر المواقف خطورة وتهورا كان من شيمه، فقد اعتاد منذ الصغر مراهنة رفاقه على النوم في المقابر لوحده بعد منتصف الليل..

ورغم الأمور الرهيبة التي قام بها إلا أنه كان في أغلب الأحيان مرحا ظريف المعشر، تزوج فجاءت خلفته كلها من الإناث، فلم يسود وجهه ولم يعبس، ذكر أنها نعمة من ربه، وبأن البنت بعشر رجال..

ومع ذلك تعلق قلبه بابن أخته الصغير (رَمَّاح)، فعندما كان صبيا في الثامنة أقدم على فعلة كادت أن تفقده حياته..

في ذلك اليوم كان الخال عائدا للمنزل عند الظهيرة، فلمح الصبية يتراكضون صوبه صارخين:

- (رَمَّاح) عضته حية سامة!

كان يحمل كيس بيض وجريدة، وبثوان ألقاهما أرضا، وجرى حيث اقتاده الصبية الأشقياء عند الخرائب..

هناك، وجد ابن أخته جالسا وقد أعطاهم ظهره، فصرخ وقد انقبض قلبه من شدة الانفعال:

- (رَمّاح)؟!

التفت إليهم وهو يضحك، وحول ذراعه الأيمن التف «حنش» أسود هائل الحجم ومروع المنظر!

قال لهم مشيرا بسبابته للمخلوق الرهيب:

- إنه يمد لسانه لي!

ومن ثم قام بمد ذراعه للأسفل، فانفلت الحنش على الأرض، وطفق يسعى زاحفا بسرعة حتى اختبأ بين الأنقاض!

ركض (حمزة الأسد) إلى الصبي، فتلقفه، وأخذ يفتش بصورة محمومة في جسده هاتفا:

- هل عضك؟! أين عضك؟!

- لم يعضني..

هدأ الخال أخيرا، لكن مخيلته لم تهدأ.. ترى كيف استأنس الصبي المخلوق

الزاحف الأسود؟

بدا عليه الغضب فجأة، فصاح:

- هل جننت يا ولد؟ كيف تلهو بالحنش؟ ألا تعرف أن عضته لا منجاة منها؟

بقي الصبي على صمته، فعاود الخال صياحه بغيظ:

- ما بالك لا ترد؟

- قد كلمني..

- من؟

- الحنش! همس في أذني بكلمات!

- هل جننت؟

- أقسم بالله العظيم أن..

- لا تقسم.. وبم أخبرك يا فالح؟

تردد الصبي بالنطق، فعاجله الخال بضربة قاسية على قفاه صائحا:

- انطق!

قال الصبي وقد أجهش بالبكاء:

- قال.. قال بأنه يدعى (الحارث)!

حدق (حمزة) في وجه الصبي المنتحب مشدوها، ثم صوَّب نظراته الذاهلة إلى الأنقاض حيث تلاشى الزاحف الرهيب..

للمرة الأولى شعر بالخوف يسري في عروقه، خوف غريب مبهم غير قابل للتفسير، كما لو كان نذير شؤم من نوع ما..

تنبه إلى أن الصبي لا يزال يبكي، فمسح على شعره قائلا بتجهم:

- طيب ، طيب ، لا تبكِ هكذا، كن رجلا ودع البكاء للنسوة.. سأشتري لك الكنافة إن توقفت في الحال..

- أريد هريسة!

- طيب حاضر، لكن كف عن البكاء بحق الله!

توقف (رَمَّاح) على الفور، فمسح دموعه بكفه، ثم قبل يد خاله الذي تبسم أخيرا لذلك..

****

من يومها أدرك (حمزة) أن الصبي أسد كخاله، تصرفاته جريئة رغم أنه يقدم عليها بعفوية وبراءة.. يراهنه الأولاد على دخول مغارة الخفافيش في جنح الظلام فيدخل.. أو على ولوج وكر جماعة (هزيمة) أثناء غيابهم فيلج.. وعندما راهنوه على المبيت في المقابر سبقهم إليها..

وفي عيد الأضحى قام الخال بتعليمه الذبح، ارتبك الصبي بداية، لكنه أتم عملية الذبح بعد ذلك كما لو كان قصابا بالفطرة..

زادت جرأته يوما بعد يوم، فازداد بذلك إعجاب خاله به وتعجبه لما يصنعه الصبي رغم صغر سنه..

أما أغرب ما في الأمر هو أن (رَمَّاح) ظلَّ على لطفه رغم الأمور القاسية التي علمه إياها خاله..

الفصل الثالث

نقب بين أشرطة «الكاسيت» حتى عثر على ما يرضي ذوقه، فوضعه في المسجلة العتيقة..

انبعث صوت (فيروز) الذي يطرب له وبشدة، فتنهد وهو يشغل محرك سيارة الأجرة القديمة قائلا وهو يحدق أمامه بأسى:

- الرزق على الله، لكننا ننزعه للأسف من أمثال هذا!

هاهو ذا الأستاذ (حمدون) يقف والتبرم باد في تقاسيمه الذابلة..

- «الوقت كالسيف يا (رَمّاح)، إن لم تقطعه قطعك..»

- «أرجو المعذرة يا أستاذ..»

ركب الرجل جواره غير راض، فانطلق (رَمَّاح) لإيصاله إلى وجهته..

نزع المربي الفاضل نظاراته، وطفق يمسح زجاجها السميك بمنديله المبلول بالعرق قائلا بغضب:

- درجات التلاميذ زفت! لا أحد منهم يرغب بالإنصات والمذاكرة بجد..

بقي (رَمَّاح) على صمته وهو يقود السيارة مهموما، في حين تابع الأستاذ حديثه ويده تلوح بإحدى الكراسات التي بحوزته:

- خذ عندك هذا الجحش مثلا، يقول بأن القائد الذي انتصر في موقعة حطين كان الخليفة (عمر بن عبد العزيز)! والجحش الآخر أجاب بأنه (الحجاج بن يوسف الثقفي)!

ألا يستحقون السجن المؤبد أولئك الجهلة؟
- الصبر جميل مع تلك العقول الصغيرة يا أستاذ، فالحياة لا تزال أمامهم..
- يا سلام! أهذا كل ما استطعت قوله لي؟
وأضاف بنبرة تغلي من فرط الغيظ:
- عشرون عاما عانيت فيها الأمرين من جحيم اسمه التدريس، ولا اكتراث في زيادة المعاشات، ولا مكافأة حتى!
كل يوم نعيد ونزيد كطيور الببغاء والنتيجة واحدة، بل ويظل ذاك التلميذ المشاغب عندي كل سنة ليحيل حياتي إلى جحيم بدعاباته التافهة، والتي يضحك عليها زملاؤه دوما لأنهم لا يقلون عنه تفاهة وسخفا!
- الأمر لا يستدعي كل هذا الحنق يا أستاذ..
- بل يستدعي!
عاود (رَمَّاح) التنهد، وصارت أغلى أمنياته أن يطبق زبونه الذي لا يطاق فمه المزعج.. وفي النهاية تنفس الصعداء لدى بلوغه المدرسة، وإن نقده الأستاذ أجرة أقل مما يستحق..
- «نعمة كريم..»
قالها ويده تضع القروش القليلة في منفضة السجائر التي حَوَّلها لحصالة.. ثم إنه لمح الحاج (توفيق).. الكهل البدين المجهد كان يسير مستعينا بعصاه الخشبية المزخرفة على الرصيف، فخفض (رَمَّاح) وجهه مناشدا ربه ألا يدعه يبصره، إلا أن أمله خاب حينما رفع الرجل عصاه بلهفة ملوحا بها اتجاهه، وسرعان ما وجد (رَمَّاح) نفسه يقل «سفينة الأمراض المتنقلة» التي لا تكف عن الشكوى والتذمر!
- «بسرعة يا (رَمَّاح) يا ولدي للمستشفى..»
- «خيرا؟ ماذا هناك هذه المرة؟»
- «مفاصلي يا ولدي، أظنني أعاني تصلبها..»

وكعادته قام بفتح كيسه الخالد الحاوي عشرات الأدوية التي تبلع أو تشرب أو تدهن.. إن الحاج (توفيق) رجل موسوس، وخوفه من المرض لا يكاد يفارقه..

- «قل لي بني.. أتراهم وجدوا علاجا للإيدز؟»

- «لا أظن، سمعت أنه داء العصر ولا علاج له حتى اليوم.. لكن لِمَ تسأل؟»

- «أظنني.. أظنني قد أصبت به!»

أوقف (رَمَّاح) السيارة بغتة هاتفا:

- بحق الله!

استطرد الحاج وهو لا يكف عن النواح والنعيق كغراب البين:

- هذا الصباح حين استيقظت من النوم، شعرت بحرارتي مرتفعة، وبألم حاد في حلقي مع صداع!

- أهذا كل ما في الأمر؟ هذه أعراض التهاب اللوزتين يا حاج! صدقني ستكون بخير..

- كيف؟ قبل لحظة قلت بأنهم لم يجدوا حتى الآن علاجا لهذا الداء اللعين!

تمتم الفتى متبرما وهو يتوقف للإشارة الحمراء:

- ألهمني الصبر يا رب!

وأمام المستشفى نزل الحاج وهو لا يزال يولول على ما تبقى من حياته المفعمة بالعقاقير والأدوية.. ولكن وقبل معاودة الانطلاق فوجئ (رَمَّاح) بالباب الخلفي يفتح، واشتم رائحة طبيخ مخلوط بعطر «ستيتش» حريمي! فأدرك – متألما- أن السيدة (أم هشام) قد ركبت معه، الآن وفي ذات السيارة، فأي هول هذا؟!

هي جارة والدته، لكنها تتصرف وكأنها لا تعرفهم أو تأنف معرفتهم..

- «إلى البناية، بسرعة..»

لا بأس، فهو كذلك يرغب بالعروج على والدته للاطمئنان على صحتها..

كانت (أم هشام) تنظر بقرف وتأفف صوب رهط الطالبات المراهقات اللواتي ينتظرن مقدم الحافلة وهن يتحادثن متضاحكات، فدمدمت:

- جيل ملعون!

قالتها بكدر، فعاود (رَمَّاح) تنهداته التي أضحت عادة لديه.. إن الاتصال الفكري بهؤلاء القوم بات صعبا إن لم يكن مستحيلا، فقد رسخوا اللعنة الأزلية على الأجيال التعسة، الحالية والقادمة!

- «وصلنا..»

فتحت المرأة حقيبتها الجلدية المصنوعة من جلد التماسيح الزائف، وشرعت تعبث بداخلها مدة، كان يعلم أن أجرته داخل قبضتها المكورة بالفعل، وما كان عليه إلا تخمين العدد، فدعا الله أن يكون مصيبا في تخمينه هذه المرة..

- «كم تريد؟»

- «كل ما تدفعينه لي ملائم..»

- «بل أنت الذي يحدد الأجرة، أنت السائق لا أنا.. كم؟»

احتشدت دعوات كثيرة في عقله وقلبه، ثم وبتهذيب شديد ردَّ باسما:

- عشرة قروش..

بالطبع لم ينس إنقاص خمسة قروش كاملة لتلافي الوقوع بمشكلة، لكنه وجد وجه المرأة الملطخ بمساحيق تجميل رخيصة خالية من الذوق يتنمر، وتحولت إلى الكونتيسة (دراكيولا) أو شيء من ذاك القبيل وهي تزمجر كمتوحش بدائي:

- ماذا قلت؟

- ثمانية قروش.. بل سبعة!

- يا لص يا نصاب! إنني أصل إلى هنا مع سيارات أجرة أخرى أكثر نزاهة بثلاثة قروش لا أكثر!

كاد يصيح بأنها لا تركب سيارات أجرة غيره، لكنه لم يلبث أن آثر الصمت.. ناضل بشراسة حتى تمكن من تحصيل أربعة قروش، ثم سارع إلى شقة والدته داخل البناية متجاهلا نعوت (أم هشام) التي تصفه بالطمع وعبادة المال!

لو علمت أن زوجها متزوج عليها سرا ماذا ستصنع إذاً؟ كيف ستكون ردة فعلها يا ترى؟

تبسم شامتا وهو يسير على عجل، عندما توقف فجأة وهو يصفع خده براحته هاتفا:

- تبا لغبائي!

لقد نسي ابتياع بعض الحاجيات، ومن غير المعقول أن يقوم بزيارة والدته ويده خاوية.. كان يفضل ابتياع هدية لها، لكنه الآن مضطر لجلب بعض الأغراض الضرورية من دكان البقالة وبائع الخضار والفاكهة..

الفصل الرابع

صعد متثاقلا درجات سلم البناية الحجري الأثري شاعرا بألم في رئتيه اللتين أجهدهما بالتدخين المفرط، حاملا بين يديه بضع أكياس مثقلة بالأغراض التي ابتاعها..

توقف أمام باب خشبي أبيض يحمل رقما نحاسيا في الطابق الثاني، فطرقه لعلمه أن الجرس لا يعمل.. فتح الباب لتظهر طفلة جميلة على عتبته، نفخت خديها بصورة مضحكة قائلة بتأفف:

- نعم؟

- سمو الأميرة (رَيَان) زعلانة؟ أهذا يعني أن «عمو» لن ينال قبلة؟

- «عمو»؟! من تظن نفسك؟

- لِمَ هذه التكشيرة؟

- مائة سنة كي تتشرف وتأتي حضرتك لزيارتنا؟

- مائة سنة مرة واحدة؟! أوف!

تعالى صوت أنثوي صارم من الداخل خاطب الطفلة بقوله:

- من بالباب يا (رَيَان)؟

- (رَمَّاح) يا ماما..

- دعيه يدخل وتعالي لمساعدتي بإعداد طعام الغداء..

- حاضر يا ماما.. تفضل يا حضرة المحترم!

- شكرا يا سمو الأميرة!

اقتادته إلى غرفة المعيشة وهو يسألها مستمتعا بإثارة استفزازها:

- لماذا لم تذهبي للمدرسة اليوم؟

- أردت أن أمرض اليوم..

- امرضي غدا!

- اليوم أعطونا إجازة بمناسبة عيد المعلم يا أخي!

قال متعجبا:

- حتى هذا يا إلهي؟

وتذكر – بتشف- الأستاذ (حمدون)، لابد وأنه الآن في المدرسة يرغي ويزبد لأن أحدا لم يخبره بإجازة اليوم!

سأل الطفلة الشقية:

- كيف حال (وضاح)؟

- يسأل عنك كل يوم..

عاود صوت المرأة الارتفاع من المطبخ قائلا بحدة هذه المرة:

- بسرعة يا بنت..

- حاضر يا ماما..

وقبل ذهابها رمقته بنظرة غامضة وهي تقول له بنبرة تشف:

- يوما ما سنتزوج أنا وأنت! وعندئذ سأريك!

- أنتظر ذلك اليوم بفارغ الصبر!

واتجهت صوب المطبخ حاملة بعض الأكياس الخفيفة عن (رَمَّاح)، وهي لا تكف عن رمقه بتلك النظرات الحادة والمثيرة للضحك..

تظاهر بالارتجاف خوفا من نظراتها حتى غابت عن ناظريه، فتبسم بدعة، ثم اتخذ سبيله اتجاه حجرة المعيشة..

كان هنالك صبي جالس على الأريكة، صبي بالغ البدانة بصورة غير

طبيعية، كخرتيت لم يعرف في حياته سوى الأكل والنوم..
كان يشاهد الرسوم المتحركة على شاشة تلفاز قديم بفاه مفغور، فهمس له (رَمَّاح) برفق وإشفاق وهو يدنو منه:

- كيف حالك أيها السبع؟

تلفت الصبي ببلاهة، فما إن وقع بصره على شقيقه الأكبر حتى مدَّ ذراعيه عن آخرهما.. عانقه (رَمَّاح) بمودة وحنو، ولثمه على خده المكتنزة هامسا في أذنه مجددا وهو يجلس إلى جواره:

- بخير؟

هز الصبي رأسه متهلل الأسارير، ثم صاح بأعلى صوته:

- حبيبي! حبيبي!
- وأنا كذلك أحبك، أين ماما؟
- نائمة..

نطق بتلك الكلمة مريحا رأسه الثقيلة على كتفه، وهو يغمض عينيه ويرفع من صوت غطيطه مقلدا النيام، فتبسم (رَمَّاح) قائلا له:

- سأذهب لرؤيتها، كن عاقلا يا (وضاح).. من أعقل وأشطر ولد في الدنيا؟
- (وضاح)!!
- أحسنت، والآن شاهد الرسوم المتحركة..

ومسح على شعره مداعبا قبل أن ينهض من جواره، وسار إلى حيث حجرة نوم والدته المريضة.. فتح الباب برفق وحذر ليجدها نائمة تماما كما قال شقيقه، فتحولت بسمته الوادعة لأخرى حزينة مشفقة..

****

كان يهم الآن بإغلاق الباب كي يدعها تستريح، عندما فتحت جفنيها ببطء جعله مسمرا في مكانه..

- «(رَمَّاح)؟»
دلف مستعيدا ابتسامته الأولى، فاعتدلت ببطء على سريرها المعدني القديم الذي يئز كلما اختلج لها جفن.. حجرتها مرتبة بعناية، لكنها – كالشقة ككل- توحي بصعوبة أحوالهم المعيشية..
أرادت النهوض من الفراش، لكن آلاما مبرحة لم تهدأ في رأسها وبدنها العزيزين، إلا حينما كفت عن التحرك..
- «على رسلك يا أماه، لا تتحركي..»
أسند رأسها على الوسادة بحرص، ثم قبل كفها اليمنى بنهم حتى تمكن من رسم البهجة على وجهها الجميل الشاحب، في حين أخذ لسانها يمطره بالدعوات الحارة..
- «اللهم فرج كربته ولا تعسر دربه..»
- «آمين، كيف حالكِ يا أماه؟»
مسَّت كفه بأناملها وهي ترد بإنهاك:
- الحمد لله على كل حال يا بني، ولا يحمد على مكروه سواه..
- سأدخلك المستشفى فحالكِ لا يسر..
- إذا أردت تعذيبي فافعل..
- ولكن يا أماه في المستشفى..
- كيف الدراسة؟
- بخير..
- بخير ، بخير أم..؟
- بخير يا أماه بخير، المهم الآن صحتك..
- بخير يا بني بخير!
قبل جبهتها باسما بلطف، فبادلته الابتسام متنهدة بعمق.. سألته عن أحواله وعمله والاستذكار، فكانت إجاباته كلها تظهر عكس ما تبطن،

فهي تحسبه في الجامعة، لكنه أخفى عنها انسحابه منها بسبب مصاريفها الباهظة..

دخلت أم (رَيَان) حاملة طبقا من شوربة الدجاج، فسلمت على (رَمَّاح) وهي تعاتبه بشدة على ندرة زياراته لوالدته وشقيقه..

- «حرام يا بني، الجنة تحت أقدام الأمهات!»

ثم تلت عليه الآية الرابعة عشر من سورة (لقمان)، فقال لها مطلقا أعمق زفرة لديه:

- أقسم بأني مقصر..

- سامحك الله يا بني، من لأمك وشقيقك – ذاك المسكين- غيرك؟

وخرجت تاركة إياه مع والدته، يحادثها وهو يعكف على مناولة فمها رشفة بالملعقة بين الفينة والفينة..

- «بارك الله فيها، لولاها لما تمكنت من تدبر أموري هنا..»

وفرغت من الشوربة، فوضع الطبق جانبا وهو ينظر لها بإمعان غريب، فسألته بقلق:

- ماذا يا بني؟ أثمة مشكلة؟»

أطال النظر إليها، ثم أزاح وجهه جانبا وهو يرد متضايقا:

- لقد قصرت بحقك وحق (وضاح) كثيرا جدا..

- لا تقل ذلك..

- إن لم أقله لن أتجاهل التفكير به..

- ماذا أفعل كي لا تفعل إذاً؟

- سامحيني..

- سامحتك!

- من كل قلبك؟

- من كل كياني..

وضع رأسه في حضنها، فمررت يدها الناحلة بين خصلات شعره الفاحم..

- «ألا يصنع قلب الأم شيئا غير المسامحة دائما وأبدا؟»

- «بلى، هو محب كذلك..»

- «إذا أصابك مكروه قتلت نفسي!»

- «لن تفعل، وإلا لن تكون ابني الذي أحببته وربيته..»

ورغم الذي قالته برباطة جأش، شعر بارتجافة يدها على شعر رأسه، وكأنها تخشى فقدانه منذ الآن..

كان شارد الذهن تقريبا، يتأمل بحاله وحال والدته، عندما لمح صورتها وهي صغيرة مرتدية زيا تنكريا أحمر اللون بذيل وقرنين!

ابتسم متذكرا في صغره ما سردته والدته عليه عن ذكرياتها، عندما كانت تلميذة صغيرة وشاركت في مسرحية مدرسية، متقبلة دورا رفضنه زميلاتها كلهن، لأنه يحتم على الممثلة ارتداء تلك الملابس الحمراء المضحكة تجسيدا للشيطان!

تذكر متأملا صورة تلك الطفلة الضاحكة ذات القرون الحمراء والذيل والمذراة الخشبية العملاقة ذلك المقطع الرهيب الذي تلفظ به الشيطان للفتى العاق: «ائتني بقلب أمك يا فتى ولك الجواهر والدرر!»

لم يتنبه إلى أنه قد تلفظ بصوت مسموع ذلك المقطع إلا حينما سمع والدته ترد عليه بشرود مشفق:

- «ولدي حبيبي.. هل أصابك من ضرر؟»

الفصل الخامس

فوجئ (رَمَّاح) بضباب داكن غريب يحيط بها.. بالصورة من منظوره بأسرها، ثم سمع صوتا كهزيم الرعد!

- «أفق يا صاح!»

استفاق وهو يشهق، شعر بآلام في أجزاء من جسمه وكأن مائة شخص غاضب انهالوا عليه بعصيهم..

كان الظلام دامسا، فشعر بالحيرة وهو يتمتم كالمسلوب:

- أين أنا؟

- استرخ يا زميل، هذه هي الزنزانة، وأنت هنا لقضاء فترتك التأديبية!

- أجل، أجل..

- كنت تهلوس كمن تخبطه الشيطان من المس، ذكرت أمورا مبهمة..

- مثل ماذا؟

- لا أعلم! كنت تستغيث من شخص أو شيء ما يطاردك..

- الآن تذكرت!

- من الواضح أنها ذكرى سيئة..

- الأسوأ على الإطلاق..

- فضفض..

- لشخص مصاب بداء السرقة؟

- لصوت حادثك في عتمة الظلام فأشعرك بالطمأنينة..
- هل هبط الليل؟
- نعم..
- ما هذه الزنزانة المعتمة؟ أليس من المفترض أن تكون هنالك مصابيح للإضاءة هنا؟
- ربما تمر إدارة السجن بمرحلة تقشف.. ما الكابوس الذي رأيته وأثار ذعرك إلى ذلك الحد؟
- دعك من كوابيسي الآن وأخبرني.. معك سيجارة؟
شعر بها في يده، ثم اشتعل عود ثقاب بدد بعض الظلمة، فقرب (رَمَّاح) السيجارة التي دسها بين شفتيه من الشعلة الضئيلة..
لم ير سوى اليد التي أشعلت له العود، وتساءل صاحبها:
- هل ترى دائما كوابيس مروعة؟
أجابه بعدما أخذ من النار حاجته:

- أحيانا، لكنني لا أدعها تؤثر فيّ إلى حد الصراخ الهستيري!
- الصراخ مفيد أحيانا، لا أتحدث عن الصراخ الهستيري! بل صراخ الغضب الذي يخرج كل ما بداخلنا من ألم ومقت..
- وهل أنت طبيب نفساني الآن؟ حسبتك سوف..
باب الزنزانة يفتح بضوضاء تصم الآذان..
يدخل عريف غليظ المظهر والصوت، وقد أثبت الأخيرة بزعيقه:
- تحرك!
نهض (رَمَّاح) بيد مرفوعة كتلميذ الابتدائية حين يطلب الإذن للذهاب إلى دورة المياه، والعريف يردف بعقيرته الزاعقة:
- «بسرعة! سيادة المقدم يريدك..»

- «أحقا؟ حسبتها زيارة أو إخلاء سبيل!»
- «تستظرف يا صعلوك؟ هلم أمامي!!»
حاول (رَمَّاح) النظر إلى حيث يقبع زميل زنزانته، لكن الأخير رفع من عقيرته صائحا:
- حظا موفقا يا (رَمَّاح)!
ترى كيف عرف اسمه بحق الله؟ هو لم يذكره بكل تأكيد!
أما العريف فقد نظر إلى البقعة حيث يجلس زميل زنزانة (رَمَّاح) كمن بوغت، وغزت ملامح وجهه الحيرة..
كاد أن ينطق بشيء، لكنه آثر الرجوع لاحقا كي يتيقن!
وهكذا انغلق الباب الثقيل مجددا..

****

كان المقدم كهلا حليق الوجه ذا رأس أشيب، ملامحه غائرة متجهمة رغم اكتنازه.. بدا هادئا باردا، وقد أشعر هذا (رَمَّاحا) بالقلق..
كانت غرفة التحقيقات صالحة لاستجواب المشتبه بهم في جرائم القتل، واجهة زجاجية لا تسمح له برؤية من بالخارج، لكنها تسمح لهم برؤية كل ما يدور داخل هذه الحجرة الضيقة..
على المائدة وضع المقدم سلاحه وعلبة سجائره وملفا مقلوبا وآلة تسجيل، ووضع أيضا قبضته التي خرجت منها ثلاثة أصابع في خده، كان ينتظر سماع أقوال (رَمَّاح)، فتمتم الأخير بخفوت:
- حسنٌ، أعترف بكل التهم الموجهة إلي!
ظلَّ الرجل صامتا، فابتسم (رَمَّاح) بسمة مرتبكة مدمدما:
- أتظن عقابي سيكون شديدا؟ لدي والدة مريضة، كما أن شقيقي..
الرجل ينظر نظرات مخيفة بحق، فتلعثم (رَمَّاح) وهو يدمدم:

- شقيقي..

نطق الحجر الأصم أخيرا، فقال ببرودة كاسحة:

- شقيقك متخلف عقليا! نحن نعلم هذا يا غلام..

كان الوغد قاسيا، صادما، ناهيك عن لفظة «غلام» التي حملت الكثير من الاستهانة والاحتقار.. فطأطأ (رَمَّاح) رأسه قائلا بضيق بالغ:

- بالضبط!

ظلت قبضة الرجل ثلاثية الأصابع مدفونة في خده، واستعمل اليد الأخرى ليقلب الملف، فظهرت صورتان قديمتان بالأبيض والأسود، واحدة لوجه ينظر للكاميرا بعبث ساخر، والأخرى ملتقطة جانب وجهه تماما كالمجرمين مع لوحة سوداء بأرقام بيضاء..

تنفس بصعوبة، بصعوبة بالغة، وتدلى فكه السفلي متبرما..

في حين همس المقدم برضا المظفر:

- أهلا ب»الخطر الأسود»!

الفصل السادس

لم يكن رجال مباحث أمن الدولة من محبي المقدم (يوسف زيدان الإدريسي)، لكنه فرض عليهم احترامه، سواء برضاهم أم رغما عن أنوفهم.. كان رجلا شديدا حتى مع أهله، من النوع الذي يبطن الأسرار كأنه صنع من عقله مستودعا أمنيا لها، وقد ظفر باحترام رؤسائه بشدة بعد مداهمته الناجحة لوكر تنظيم مسئول عن تفجير إرهابي وقع في العاصمة، كان قد قاد المداهمة بنفسه كي لا يفشل أحد تخطيطه المرهق، وما هي إلا ساعات فحسب حتى تمكن من القبض على قائد التنظيم الذي حاول الإفلات من المطاردة واسعة النطاق، وقد كان صيدا ثمينا لما يعتقد عنه بأن له نشاطات أعنف في عواصم عربية أخرى..

هكذا وخلال أسبوع فحسب تمكن (الإدريسي) من ترتيب حملة ملاحقة موفقة، وصار لقبه المتداول سرا بين زملائه «عزازيل»! بلغه ذلك فلم يمانع أو يعترض، بل إن اللقب قد راقه نوعا وان لم يسر لأحد بذلك سوى ذاته!

كان من المتوجب عليهم في الإدارة ترقيته، لكن الرجل أشعل بعض التوترات بتقاريره الصادقة بشأن تهم الإرهاب التي تحاول الدول الأجنبية المعادية إلصاقها بهم، كان أشبه بمتمرد وسط أولئك الذين تلقوا أوامر مشددة بالتعتيم كي لا يقلقوا راحة «العلاقات الديبلوماسية الحسنة» ما بين حكومتهم وحكومة الدولة المتهمة بتمويل ذاك التنظيم، فرفض

(الإدريسي) الترقية واصفا إياها برشوة لمنعه من الكلام!

****

ثم أتى يوم الفاجعة المشؤوم..

في ذلك اليوم الأسود الكئيب كان يدوِّن تقريرا على مكتبه، عندما تلقى مخابرة من..

- «إنها مَدرسة (عصام)!»

شعر سيادة المقدم بالدهشة، اليوم أول أيام امتحانات الثانوية العامة، فلماذا يتصلون به من مدرسة وحيده؟

طلب تلقي المخابرة، فأتاه صوت ناظر مدرسة ابنه، وقد تبدى مرتبكا متلعثما إلى أقصى حد..

- «صباح الخير يا بيك!»

قال والدهشة ترسم تعبيرا أكثر آدمية على وجهه الصخري:

- سيادة الناظر؟ خيرا إن شاء الله؟

واحتد صوته لما قال:

- هل فعل (عصام) شيئا؟

- لا يا بيك! العفو، ولكن.. ابنك..

تحولت حدته إلى قلق مباغت، ثمة خطب ما..

- «انطق يا سيادة الناظر، ما له الولد؟»

حسم الناظر تردده، فقال بصوت خالجه أسى عميق:

- ابنك توفي قبل نصف ساعة في لجنة الامتحان يا بيك!

****

بالنسبة لرجل فقد زوجته أثناء ولادتها، ومن ثم وحيده أثناء تأديته

امتحان الثانوية العامة، بالنسبة لرجل كذلك الرجل تلوح في الأفق أمام عينيه نهاية كل شيء..

ولكن ليس بالنسبة ليوسف زيدان الإدريسي..

صحيح أن الخبر قد أصابه بشيء أقرب للسهم الناري بين أضلعه، لكنه لم يعر ملامح وجهه الاهتمام الذي استحقه النبأ، اللهم سوى اتساع عينيه المؤقت، ومن ثم تناول السماعة التي أفلتت من يده..

- «ألو؟ هل لا زلت على الخط يا بيك؟»

وأعادها إلى مكانها..

ثم تناول القلم، واستأنف كتابة تقريره!

كان صمته مذهلا وبروده خارقا غير بشري، وحتى لاحقا وهو يتلقى العزاء على وفاة «وحيده الغالي»، بدا وكأن الأمر لا يعنيه في شيء!

عرضوا عليه إجازة مدفوعة الراتب، لكنه رفض، (يوسف زيدان الإدريسي) لم يأخذ إجازة في حياته، ولن يفعل الآن لمجرد أن ولده الوحيد قد قضى نحبه بتلك الطريقة المخجلة!

ولكن هناك، في ذلك المكنون الغامض الذي أعطيناه اسم الفؤاد، في غياهبه السرمدية التي درسها علماء البشر منذ أمد بإعجاب من إعجاز خالقه جلَّ وعلا لغاية الآن.. ترددت عبارة لم تتركها ثناياه مذ تلقى فاجعة وفاة وحيده:

«**لقد قتلت ولدك يا (يوسف)!!**»

أجل.. هو من قتله.. ومن غيره؟ كان يضغط عليه بشدة، ويهدده بشدة.. إما المجموع العالي لتصير طبيبا مرموقا أو الجيش لا محالة حيث يزحفونك على بطنك فوق الأشواك، ويقدمون لك الضفادع والسحالي كوجبات غذائية، ويتركونك لرمال الصحراء اللاهبة!

والفتى مرهف الحس كان خائفا، كان رقيقا لطيف المعشر كالمرحومة والدته، لكنه أراد القضاء على كل صفات الرقة لديه، ربما لم يرد (زيدان

الإدريسي) تذكر زوجته في تصرفات ولده، يكفيه أن الفتى ورث ملاحته بأكملها عن والدته..

مراقب المادة أخبره – بحزن- أن البيك الصغير ارتعش لمرأى ورقة الامتحان الأولى، كان يتعرق، يرتجف.. بل ينتفض!

- «طلبتُ منه أن يذهب للحمام كي يغسل وجهه ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، لكنه لم يتحرك.. البقية في حياتك!»

أرجح (الإدريسي) برأسه مهموما، وإن لم يفضح كذب المراقب، فمن المعلوم لديه أن الطالب ممنوع من الخروج من لجنة الامتحان حتى لدخول الحمام، لا أحد يخرج سوى لدى الانتهاء من الإجابة، وعند انتهاء نصف المدة الزمنية للامتحان بإمكانه المغادرة إلى سعير جهنم!

«لقد قتلت ولدك يا (عزازيل)!!»

الفصل السابع

في غرفة التحقيقات، ظن (رَمَّاح) أنهم يبددون أجواء التوتر عندما دخل شرطي حاملا قدحا تفوح منه رائحة القهوة المنعشة، حسبهم يحاولون تهدئته.. لكن القدح وضع أمام المقدم الكهل، فتبسم (رَمَّاح) في شيء من حنق، ثم أصابه سخط داخلي لما يصنعونه معه، فاشتدت رباطة جأشه وهو يتساءل مفتعلا برودة:

- هل ستظل صامتا إلى يوم يبعثون؟

كان تحديا أهوجا دفع (الإدريسي) إلى تحرير خده من قبضته، فقال وسبابته مصوبة للملف الذي دوِّن عليه بالحبر الأسود الشيني عبارة «سري للغاية» بالإنجليزية:

- كنتَ فتى مشاغبا لأبعد الحدود على ما يبدو يا (رَمَّاح)!

همس (رَمَّاح) بمقت:

- قالوا لي إنهم لن يدرجوا حماقاتي في سجلي، وأخذوا مني تعهدا على ما أذكر!

- لا تصدق كل ما نقوله يا غلام..

- وما هذا بحق الله؟ Top Secret ؟! هل أنا تاجر سلاح؟!

- ما فعلته كان ينبئ بالمشاكل..

- كنتُ صغيرا وأحمقا! ولكن ليس لدرجة عمل ملف أسود خاص بي!

- لِمَ لا تسرد عليّ هذه الحكاية المسلية بكل تفاصيلها وتدعني أنا أقرر؟

- تقرر ماذا؟

- ما إذا كان هذا الملف يستحق الشطب..

قرب (رَمَّاح) وجهه قليلا من ملامح غريمه، وبحنق سأله:

- ما علاقة هذا بالتهمة الموجهة إلي؟!

- أنت غير متعاون يا غلام، وهذا سيئ بحقك..

أراد (رَمَّاح) ذكر عبارة ما غاضبة، لكنه تذكر أنه بحضرة القانون، وأي قانون؟ إنهم أمن الدولة الذين لا يرحمون! وتذكر ما بإمكانهم فعله به.. هكذا خفض وجهه بخنوع، قائلا برضوخ متجهم:

- هل بإمكاني تدخين سيجارة على الأقل؟

****

استرسل (رَمَّاح) في حكايته مستخدما قداحة المقدم لإشعال السيجارة التي أخذها من علبته:

- كنا في المرحلة الثانوية، في أيام عصيبة افتقدنا معها عمق الإثارة التي استمتعنا بها في المرحلة الإعدادية..

هدأت المشاجرات نوعا وندرت التحرشات ، لم يعد أحد يكترث للرياضة أو للتحديات.. صارت المعركة معركة تحصيل علمي جاف..

قلت همة (سكبو) للمغامرات الصبيانية، ولم نعد نخرج لممارسة ألعاب قد باتت للصغار كألعاب المطاردات، ومع ذلك كنا نبحث عن الأفكار الجديدة التي تمكننا من تحمل ركلات الحياة الرعناء، تلك الحياة المقلبة لنفسية المرء، بحيث تجبره على المسايرة المريرة ما لم يتمرد..

أحيانا نتشاجر على سهرة الأفلام، فهو يفضل أفلام الرعب الدموية خصوصا تلك المتعلقة بالزومبي، في حين أنغص عليه بدفعه إلى مشاهدة أفلام كلاسيكية من طينة «المحقق السري» و«12 رجلا غاضبًا» لأن قصصها

تعجبني كثيرا!
كان ذلك روتين حياتنا، إلى أن جاء اليوم الذي خرجت فيه من المدرسة في جو ظهيرة حار كسعير جهنم، فلحق بي (سكبو) ليخبرني بالآتي:
- أحضر دفتر رسوماتك وأقلام التلوين وكل مثل تلك المستلزمات الفنية، وتعال لزيارتي اليوم عقب صلاة العصر.. لا تقلق فلن يكون هنالك أحد سوانا، اتفقنا؟
أثار موضوعه جل اهتمامي، لذا قمت بزيارته في الفيلا البيضاء الجميلة حيث استقبلني بحفاوة مفرطة، وكان أول ما سألني عنه هو:
- ألا زلت تكتب الروايات مع (سعيد)؟
كان (سعيد) صديق المرحلة الإعدادية قارئا نهما لكل أنواع الكتب والمجلات، لدرجة شكي بأنه يقرأ كتب الطبخ أيضا، أو كتبا مملة عن الزهور أو الخزف الصيني..
جمعتنا تلك الهواية الآسرة، ومن ثم قمنا بتوطيد تلك العلاقة عن طريق تأليف الروايات..
عشرات الأفكار أخرجناها على الورق، غزيرة ومبتكرة في رأي (سعيد)، أما عني فلم أتفق معه، وانتهى بنا الأمر إلى تمزيق كل ما فكرنا به وكتبناه..
سنوات على تلك الحال حتى أصيب (سعيد) المسكين بالإحباط، وفترت حماسته لحدٍ بعيد..

- **«لا، لم نعد!»**
قلتها وأنا آسف على حالنا أنا و(سعيد)، فقد كانت أيام التأليف من أجمل الأيام، لكن الدنيا متقلبة المزاج إلى حدٍ لا يوصف، وكل حال من المحال له الدوام..
لم يعد (سعيد) يهوى التأليف، صارت اهتماماته متركزة على أجهزة الحواسيب، أما عني فلم أقرر إكمال المشوار الذي بدأته سابقا مع (سعيد) منذ أمد.. فماذا يريد (سكبو) من ذلك كله؟

- «مجلات الكوميكس!»

- «والمعنى؟»

أخرج من الخزانة أعدادا من قصص الخارقين المصورة، طفق يقذفها أمامي قائلا:

- منذ أسابيع وأنا عاكف على مطالعة هذه المجلات..

- إنها مسلية، ولكن ليس كثيرا، رأيي أنك كنت تضيع وقتك..

- ليس بقصد التسلية، ثمة إعلان شاهدته في «الدش» في قناة «BBC»!

في تلك الأيام كانت أطباق الأقمار الصناعية أمورا غير معتادة، لذا تجدني مفغور الفاه لما رددت:

- في «الدش»؟

- إعلان لدار «ديتيكتيف كوميكس» الناشرة لأشهر قصص الأبطال الخارقين المصورة كالرجل الوطواط!

الإعلان يطالب الأقلام الموهوبة بابتكار شخصيات جديدة لأبطال خارقين لأجل مجلات القصص المصورة، ومن ثم إرسال تلك الابتكارات إليهم، إن الفوز معناه المال والشهرة..

- والمجد؟

- بالتأكيد! تخيل أن يقوموا بإصدار مجلة مصورة لمغامرات بطل خارق من ابتكارنا، سيصير هنالك نواد وجمعيات للمعجبين والمعجبات، ومراسلات لا تتوقف، وإعلانات لسلع ومنتوجات، ومسلسلات كارتونية ناجحة، وبعدها فيلم سينمائي يحطم الأرقام القياسية في در الإيرادات ثم..

كانت الفكرة مسلية، صحيح أن (سكبو) الساذج لا يدرك أن فوزنا من ضروب المستحيل، فالعرب لم يخلقوا لمثل تلك الأمور، لكني قررت مسايرته لقضاء وقت ممتع فحسب!

وهكذا عكفنا لأيام على وضع تصورات أولية لشكل بطلنا الخارق، وبقينا نضيف ونحذف ونحاول ألا نظهر فكرتنا مفرطة في السذاجة، حتى أخرجنا

للوجود باكورة نتاجنا الأول: شخصية تدعى «مخلب الثلج» أو «طائر الجليد».. شيء مبتذل من هذا القبيل..
أرسلنا الفكرة البلهاء إلى العنوان المفترض، وفيما بعد نسيت الموضوع، لكن (سكبو) لم ينسه.. اتصل بي عدة مرات ليخبرني بأن شخصية واحدة لا تكفي، ينبغي إغداق الشركة بالشخصيات الخارقة للزيادة من فرص النجاح، تماما كأوراق اليانصيب! فوافقته في فتور..
ولم يستسلم (سكبو) لتجاهل المجلة الطبيعي لمبادراته..
ذات ليلة ليلاء أطلعني على فكرة عجيبة خطرت له:
- علينا ألا نتسرع، إن تكالبنا على الفوز هو ما يتسبب بخسارتنا على الدوام.. يجب أن ندرس الشخصية التي ننوي صنعها، يجب أن نكون الشخصية! نتنفسها ونمارس عاداتها!
- أتعني أن نطير مثلا ونهدم الجدران بقبضاتنا؟ نحن نتكلم عن شخصية بطل خارق، لاعن فيلم سينمائي نقوم بتمثيله، إن الأدباء يستخدمون هذه الطريقة أيضا، ولكن لمعرفة الأبعاد النفسية للشخصيات العميقة.. لا المُسطحة!
- لن نحاول الطيران أو هدم الجدران بقبضاتنا، بل سنفعل كما يفعلون جميعهم، نحاول تحقيق العدالة بطريقتنا الخاصة! إذ ليست كل شخصية خارقة – كالرجل الوطواط على سبيل المثال-، ولكي نبتكر علينا معايشة البيئة التي عاشها أولئك الأبطال، والشعور بأننا نستطيع إحداث فروق تؤدي إلى تحسين أوضاع مجتمعنا، وعلى الأقل سنمتلك المصداقية في البطل الذي سنبتكره، لأنه – ببساطة- سيكون نحن!
كانت فكرة فاشلة، لكن ما جعلني أوافق عليها كان حماسه الزائد ومللي الشديد..
سألته بعد برهة تفكير:
- وما الذي تقترحه؟ أقنعة لإخفاء هويتنا؟ صولات وجولات ليلية؟

- وكذلك اسم مناسب وشعار مناسب!
وهكذا.. في ذلك اليوم اتفقنا على اسم يناسب عصابة من الأشرار البلهاء، ألا وهو «الخطر الأسود»!
أما عن جدول أعمال البطولة فقد ارتجله (سكبو) بأكثر الأساليب حذلقة.. قال لي ونحن نتمشى في أرجاء الحي كناسك وتلميذه المُجد:
- أولا: يتوجب على البطل الخارق التجوال بشخصيته المعروفة من قبل الجميع في وضح النهار، حيث يقوم بالبحث عن أماكن الشغب وأوكار العصابات والموبقات التي سيداهمها ليلا، أثناء التجوال عليه أن يبدو كخانع مثير للشفقة كي لا يشك أحد أنه البطل بشحمه ولحمه!
- إنك تفرط من مشاهدة أفلام أولئك الأبطال المزيفين وقراءة مجلاتهم.. لكنني بدأت استمتع بالأمر دون إفصاح من جانبي..
- «سجل في ذهنك المتقد جدول الأعمال لهذا اليوم: (معتصم) الوغد قام بصفع ذلك الولد الصغير!»
- «أتعني أن نخرج بعد منتصف الليل كي نؤدب (معتصم) على فعلة كهذه؟»
- «من قال بأن حياة البطل الخارق عبارة عن راحة في راحة؟»
- «ماذا لو كان نائما في منزله؟ هل نقرع جرس بابه وننتظر خروجه إلينا كي نؤدبه؟»
- «إنه من «الزعران»! سيظل ساهرا في الشارع مع رفاقه حتى مطلع الفجر..»
أردت سؤاله عن كيفية قيامنا بتأديبه وسط شلة الأنس خاصته، ماذا لو قبضوا علينا وانتزعوا أقنعتنا ومن ثم انهالوا علينا ضربا؟ سيكون ذلك أمرا مهينا.. ثم عدلت عن السؤال كي لا يتهمني بمحاولة تبديد الحماس، في الغالب أنه سيأمر بالتقهقر..
- «**ثانيا:** على البطل الخارق ألا يكثر من مساعدة الناس في شخصيته المعلومة لديهم..»

- «أتظن بأنه إذا ما طلب أحدهم عوني في دفع سيارته وسارعت إلى مد يد العون له سيحسبني البطل الخارق؟ إنه هو! لا أحد غيره يوافق على مساعدتي في دفع السيارة!»

نفخ الهواء الحار من فمه بقوة، ودعاني لمشروب بارد على حسابه..

ما إن هممت بولوج البقالة حتى فوجئت بفتاة صغيرة تدفعني بقوة جانبا، وخرجت وهي تقول لي بحدة من بين أسنانها المسوسة:

- أيها ال..!

جمدت لدى سماعي كلامها، فقد كان غاية في الانحطاط، قلت لسكبو مستغربا:

- أسمعت ما قالته تلك الطفلة البلهاء لي؟

- إنها شقيقة (معتصم)!

- ما شاء الله! سجل في جدول الأعمال نقطة خاصة بتأديبها أيضا!

وخرجنا من دكان البقالة مع زجاجتين من عصير الفواكه، محاولان ارتجال مزيد من الأفكار، فكانت النتيجة التي خرجنا بها أننا لم نجد ما يستوجب خروجنا الليلة، إلا لو اتفقنا على تأديب (معتصم) وشقيقته الصغيرة المنحطة..

- «**ثالثا:** إن لم يكن هنالك متاعب في النهار فعلينا إيجادها ليلا!»

إذاً فقد خرجتُ بتلك النتيجة وحدي!

وهكذا اتفقنا على الواحدة بعد منتصف الليل، حيث قمتُ بارتداء ثياب رياضية سوداء اللون، ووضعتُ على وجهي قناعا من الورق المقوى قمتُ بتصميمه بحيث يظهرني كالبعبع، البعبع الساذج في الواقع، وارتديتُ قفازات لحراسة المرمى!

حملتُ معي سكينا قديمة جلبها والدي معه من أحد أسفاره، وقد كانت ماضية تستخدم للصيد..

وعملا بنصيحة (سكبو) قمتُ بارتداء عدد من الجوارب بدلا من الحذاء، لأن خطوات البطل – حسب كلامه- لا ينبغي أن تكون مسموعة كي

يتمكن من التسلل أو الاختباء!

وحين تأملتُ نفسي في المرآة راقني ما رأيته، وراودني حدس بأن الأمر سيكون ممتعا حقا!

****

خرجت من داري بحذر، إذ لا يجب أن يرى أحدهم مكمن «الخطر الأسود»! وسرت على الشارع بحذاء مكون من أربعة جوارب سود! فشعرت براحة وأنا أتمشى متصورا الشارع بأسره كأرضية الدار، صحيح أن الثياب جعلت عرقي يتصبب بسرعة، لكنني لم أشعر بالحرية كما شعرت بها في ذلك اليوم..

سرتُ متسترا بالظلام حتى فيلا (سكبو)، ولما بلغتها تساءلت مع نفسي ما إذا كان سيخرج برفقتي أم سيغط في نوم عميق ناسيا أو متناسيا موعدنا الهام.. لم أتساءل أكثر عندما لمحته يخرج من البوابة الفولاذية مرتديا ثيابا مشابهة لما يرتديه محارب «النينجا»! من لثام وخف.. الخ، بل وحمل سيفا ضخما على ظهره مثلهم!

- «ما هذا يا مغفل؟ لسنا في حرب هنا!»

ردَّ لاهثا لأن السيف العملاق كاد أن يقصم له ظهره:

- كل جولات البطل الخارق عبارة عن حروب!

ومع ذلك اقتنع في النهاية، ولم يأخذ معه سوى خنجر صغير للغاية..

ابتعدنا عن الفيلا بخطوات غير ضاجة، وقد وافقني (سكبو) الرأي بروعة الشعور في أن يسير المرء على الطرقات بلا أحذية.. ولكن بالليل فقط!

قال لي مطوحا بخنجره في الهواء وكأنه عاكف على تمزيقه:

- إنه شعور شرطي دورية منتصف الليل الواثق..

- سيارة قادمة.. اختبئ!

وثبنا من الشارع إلى حيث حاوية القمامة التي وضعتها البلدية، وعندما اقتربت السيارة هدأت من سرعتها كثيرا، حتى توقفت بالقرب من الحاوية بالضبط.. سمعت صوت زجاجة تسقط بداخل الحاوية – زجاجة مرطب غازي على الأرجح–، وعقب رحيل السيارة خرجنا من وراء الحاوية حيث اختبأنا ونحن نلهث بسبب نتانة الرائحة، وسمعت (سكبو) يقول من وراء لثامه:

- هذه هي روح المغامرة!

- أن نختبئ خلف حاويات القمامة من السيارات العابرة؟ إن ذلك لمهين!

- بل هو ممتع! ألم تشعر بالخطر؟ بلذة الشعور به على الأقل؟

ربما.. كنت قد فهمت خلاصة ما يحاول (سكبو) قوله لحد ما، وودت إخباره أن الشعور بالخطر ينبغي أن ينبع من معايشة الخطر الحقيقي، إلا أنني خفت من قيامه بزجنا في ورطة حمقاء، فآثرت الصمت..

تجولنا في أرجاء الحي لساعة كاملة، ثرثرنا خلالها بأكثر مما تقوم به النسوة على الهواتف، وفي النهاية قلت لسكبو الذي صار تطويحه للخنجر أقرب للضجر:

- يكفي لهذه الليلة، أليس كذلك؟

- أجل، إن تقرير هذه الليلة يؤكد بأن كل شيء تحت السيطرة!

- حبا بالله أن تصمت!

أمسك بذراعي فجأة، وقال بمكر مشيرا نحو بقعة ما:

- جاء الفرج!

لم ألمح ما يستحق أن يكون مقصده سوى سيارة (معتصم) الواقفة أمام دارهم، فهمست بشك:

- أتعنى بأن..

- إنها فرصة سانحة لتأديبه على أفعاله معك!

- بأن نخرب له سيارته؟

- ليس تخريبا بالضبط، سنفرغ إطارين من الهواء فحسب، وذلك كفيل

بإفقاده كامل أعصابه..
- لا بأس إذاً!
وبعدما فرغنا من تلك المهمة المسلية، قال لي (سكبو) وهو يمد كفه إليّ:
- ناولني بطاقة..
أخرجت من جيبي واحدة من البطاقات التي صممتها، حيث قمت بوضع شعار Xمرتجل عليها، ويعني قيامنا بتصويب الخطأ – عن طريق معالجته بخطأ آخر كما سيتبين لنا لاحقا–، وكذلك طبعت عليها لقب «الخطر الأسود» بطريقة جنائزية تبعث على الشؤم ، فتناولها مني ليدسها أسفل مسّاحة السيارة كالمخالفة!
- «أتعلم فيم أفكر؟ لو أردنا الشهرة السريعة للخطر الأسود فعلينا بإنزال هذه العقوبة على كل شاب «صايع» في الحي، فما قولك؟»
وهكذا صباح اليوم التالي، استيقظ كل «صايع» في حيِّنا الجميل والمشرق فوجد سيارته أو دراجته النارية ذات إطارات مفرغة من الهواء!
وحين كنتُ أسير إلى المدرسة حاملا كتبي، وأرى الجميع مشتعلا إلى حد الجنون، وهم يلوحون بالبطاقات الحاملة للشعار واللقب، وأسمعهم يرددون ثائرين: «الويل لذلك الخطر الأسود»!!
عندها كنت أشعر بنيلي مرتبة عليا مهيبة على أرض الواقع المقبض، كتلك التي نالتها شخصية الكونت «دي مونت كريستو» في الأدب العالمي، هو أمير لانتقام في عالم الروايات، وأنا في عالم الروتين الكئيب!

الفصل الثامن

لم يكن شعور القوة هو الطاغي علي، كنتُ سعيدا أيضا، سعيدا جدا، شعرت أن الدنيا بأسرها خاضعة لسلطاني، فصارت تحسب لي ألف حساب!
جاء (سكبو) ليصطدم بي كعادته، ولما سألني عن الأخبار أجبته متحمسا:
- عال العال، الكل يود الظفر برأسينا!
- إذاً فنحن نحرز تقدما مزدهرا ناضج الثمرات، فمن المهم أن يكون لكل بطل خارق أعداء يودون الظفر برأسه!
وفي جولتنا التفقدية الليلية التالية اختلفت الأمور وتغيرت الأوضاع:
- «**سنحطم مصابيح مالك دكان البقالة، فهو رجل بخيل يطرد الشحاذين من دكانه على الدوام..**
سنفرغ إطارات سيارة حارس المدرسة، لأنه يمنع التلاميذ من الخروج إلى الدكان القريب أثناء الفرصة..»
وفي ليلة من الليالي تسللنا إلى المدرسة واستولينا على أنابيب إخماد الحرائق، فاستخدمناها في رش سيارات ودراجات «الزعران» هذه المرة، ثم رسمنا بها في منتصف الطريق صورة عملاقة لشعارنا، وكالعادة تركنا البطاقات في كل مكان أحدثنا به ضررًا..
كانت أعمالنا تخريبية بحتة لا تمت للبطولة بصلة، إلا أن شيطان النشوة كان قد أثار هياجنا لصنع المزيد من تلك الأعمال، ففي النهار كانت الأمور من

أروع ما يمكن – أو كما كنا نتصور–، فالكل خائف مذعور، والقلق متبدٍ على وجوه «الزعران» الذين شعروا أنهم يواجهون عصابة لا قِبل لهم بتنظيمها..

****

جاءت الشرطة أخيرا، فكان لمجيئها عظيم الأثر في نفسينا، لقد انتهى عهد المزاح وولى بعيدا..

قال (سكبو) متأملا المشهد الذي يشد الأعصاب شدا:

- حان موعد البيات الشتوي، لبضعة أسابيع سنتوقف عن المغامرات الليلية حتى تهدأ دوريات الشرطة..

كان محقا، وشعرت بالأسى لعدم تمكننا من الخروج غدًا أو بعده، فقد اعتدت تلك اللذة التي منحتني إياها المغامرة الشائقة والوقوف في عرض الصعاب.. يا للخسارة!

هدأت الأمور لاحقا.. ربما لم تهدأ، كنتُ أتعجل الخروج من جديد، الأمر كان كإدمان المخدرات..

وفي إحدى الليالي خرجت بمفردي..

لم أصنع ما يستوجب الذكر، تجولت فقط لبعض الوقت شاعرا بالوحشة، فقد اعتدت رفقة (سكبو) المسلية..

ترى هل ترصد دورية ما تحركاتي عن بعد؟ قبل قدوم الشرطة بزمن قصير كنتُ قد كففت عن الخروج من باب دارنا، صرت أثب لمنزل الجيران، ومن هناك أستخدم بابهم للخروج، وقد شعرت بأن ذلك مضلل كفاية.. ترى ماذا سيحدث لو وقعتُ في قبضة الشرطة؟

ربما توجب علي ألا أتسرع في هذه المسألة، فلأعد للمنزل قبل إفساد كل شيء..

وبينما أنا غارق في أفكاري، فوجئت بباب أحد المنازل يفتح بغتة..

خرج شاب يرتدي «الشورت» وقد عرى جذعه بسبب الرطوبة، في فمه سيجارة، وبقبضته كيس قمامة يريد إلقاءه داخل حاوية البلدية القريبة..

تصلب لدى رؤيته ذلك الغريب المقنع! ولكي أنزع فكرة مهاجمتي عن رأسه شهرت ببطء سكين الصيد الطويلة، ولوحت بها متوعدًا! وقد كان ذلك أكثر من كاف، إذ ألقى الكيس من يده، وهرع لداخل داره صارخا:

- **«الخطر الأسود»!! استيقظ يا (سعدون)!!**

انتابتني مشاعر زاخرة بالفخر إزاء قوله، ولكن ما إن هممت بالركض حتى سمعت صوت النباح!

هنا جن جنوني من شدة الفزع، تذكرت الكلب الشرس الذي يربيه ذلك الفتى في داره، فانطلقت كالبرق كأن قوم يأجوج ومأجوج في أعقابي، ربما سيخلد التاريخ هذا اليوم باعتباره الذي شهد هزيمة كلب من قبل إنسان في سباق للجري! فوق أحد الجدران وثبت، وللكلب ألقيت ببطاقة الشعار إياها صائحا:

- انهش هذه بدلا مني!

وسارعت بالهبوط لأسفل، ثم بتسلق جدار آخر والهبوط حتى صرت قريبا من منزلي.. وعندما وصلت أخيرا، واستقريت داخل غرفتي، تنهدت قائلا عن طيب خاطر:

- ما أجمل العودة للقواعد سالما!

ونمت قرير العين حتى الصباح الباكر، وحين ذهبت للمدرسة وأطلعت (سكبو) على مغامرتي الصغيرة تلك، قال لي متنمرا:

- يا للحمق! وماذا لو تمكن الكلب من اللحاق بك؟

- لقد هزمت الكلب في الجري، أشعر بدماء البطل الخارق تجري في عروقي!

- أشعر بالحظ الذي حالفك لارتفاع مستوى «الأدرينالين» في الوقت المناسب.. لقد قام تهورك بتمديد فترة البيات..

- لا بأس..

وفي الحي انتشر خبر رؤية أحدهم للخطر الأسود، إنه كالعفريت! حتى الكلب لم يتمكن من اللحاق به!

 ****

وذات عصر أحد الأيام خفيضة الحرارة على غير العادة، تمشيت قليلا لأرفه

عن نفسي، فصادفت ثلاثة صبيان يلعبون، سمعت أحدهم يصرخ ملوحا بعصا يستعملها كسيف:
- احذروا من غضبة «الخطر الأسود» !
تبسمت بفخر، قد نسينا بالطبع موضوع مسابقة مجلات «الكوميكس»، وصرنا نركز على قضية المغامرات الواقعية لبطل تخيلناه أولا، ثم جعلناه حقيقة لاحقا!
كنت أصافح أحيانا بعض الشبان وأجاذبهم أطراف الحديث، وبالمصادفة أجذب انتباههم بذكر «الخطر الأسود» ، فيلوح الشر في معالمهم..
- «لو قبضت عليه لسلخت جلده عن لحمه!»
- «قد أفسد سيارة أخي، لو وقع في يدي فسأحطم رأسه كالزجاج!»
أهز رأسي بتأييد مطلق، ثم أتساءل متصنعا البراءة:
- ألم يكشفوا حقيقته بعد؟
- يقولون بأنه مشاغب من حي مجاور، أنت تعلم أننا في عراك دائم مع شبانهم..
تدخل آخر:
- بل هو لص وضيع يحاول سرقة المنازل..
رددت عليه مستهجنا:
- كيف وهو لم يسرق شيئا لغاية الآن؟ لو أنه سرق لترك بطاقته في موضع السرقة..
- إنه ذكي، يعلم بأنه سيتمكن من إبعاد الشبهات عنه باستخدام حيلة البطاقات! أجزم أنه يسرق من أماكن لا يترك فيها بطاقاته السخيفة كي يقنع الشرطة بأنه مجرد مخرب.. تمويه لا أكثر!
لكنهم سيمسكونه عاجلا أم آجلا.. أين يظن نفسه؟ في أمريكا؟
انسحبت عندها لأن كلامه ضايقني كثيرا..
أكملت رحلتي مهموما حتى آثرت العودة من حيث أتيت لدى سماعي أذان المغرب، وأثناء العودة لمحت بجوار المسجد زجاجات لفتت انتباهي،

ليس لكثرتها وإنما لصنفها الموحد والشنيع!

- «خمرة؟»

- «جوار المسجد! إنه منزل قريب منه، يقطنه أربعة أو خمسة من العزاب..»

- «بجوار المسجد؟ ألا يخافون الله؟!»

- «لا أظن، فهم لا يكلفون أنفسهم عناء إلقاء الزجاجات في الحاوية على الأقل!»

- «الليلة نخرج لهم!»

لم يكن (سكبو) بذلك التقى طبعا! لكن نزعة تعصب هي ما أيقظ لوهلة مؤقتة ضميره المثقل بالذنوب، مع كثير من حب الاستعراض المسرحي: **«خمرة بجوار المسجد؟! الليلة يخرج «الخطر الأسود» لتأديب كافة الأوباش!!»**

هكذا تجدني واقفا في جنح الظلام أمام المنزل المنشود برفقة (سكبو)..

****

قال متأملا المكان:

- لا توجد سيارات، إذاً فهو خاو..

- قد تكون السيارات بالداخل..

- إذاً يتوجب علينا التأكد..

ركض إلى الجدار واعتلاه بوثبة موفقة..

- «لا سيارات، لكن انتظرني ريثما أتلصص قليلا عبر النوافذ..»

وهبط للجهة المقابلة، فغاب لدقيقة قبل أن يعود ليفتح لي الباب..

- «ساعدني في حمل سطل الدهان فهو ثقيل..»

أدخلنا السطل إلى حديقة المنزل وأنا أسأل (سكبو) مترددا:

- هل نبدأ الأعمال الفنية؟

- أرى أن نتفحص المنزل من الداخل أولا..

- هل الباب مفتوح؟
كان كذلك، دليل على الإهمال الجسيم.. وبالداخل وجدنا كل ما يمت بصلة لجلسات العزاب.. زجاجات شراب، علب دخان، تلفاز وجهاز «فيديو» العديد من أشرطته ملقاة هنا وهناك، وورق لعب متناثر بعشوائية على حصيرة من قش، لم يكن ينقص الجلسة سوى العود والنساء!
- «ماذا الآن؟»
- «بادئ ذي بدء علينا بمصادرة شرائط الفيديو..»
- «لماذا؟»
- «أراهن على أنها أفلام إباحية.. لنحرمهم منها!»
وضعنا الأشرطة داخل كيس بلاستيكي جلبناه من المطبخ، وحملنا زجاجات الشراب المليئة وعلب السجائر الجديدة، ثم سارعنا بالخروج ونحن نمنع بعسر نفسينا من الضحك!
استخدمنا الطلاء في كتابة العبارة التالية على الجدار الداخلي:
«احذروا غضب الخطر الأسود وإلا عاد !!»
عبارة مبالغ بها لأننا لن نعود بالطبع!
وفي صبيحة اليوم التالي قمنا بإحراق الأغراض التي استولينا عليها قبل ولوج المدرسة، كان ينقصها شرائط الفيديو، ولما سألت (سكبو) عنها، أجابني بأنه يود الاحتفاظ بها كأدلة!
قلت له متسائلا :
- ماذا تظن ردة فعلهم كانت؟
- بالتأكيد رقصوا كالمجانين، وتوعدوا برمي أوصالنا المقطعة للكلاب المسعورة.. إياك ومجرد الاقتراب من ذلك المنزل ولو بالنهار.. أسمعت؟
- لا تقلق..
- لا جولات منفردة، إن ما قمنا به لرائع، ولكن علينا الحذر وبشدة..

- أتقترح البيات الشتوي؟
- بالتأكيد! ربما تأتي الشرطة، أو قد لا تأتي لأنهم لا يستطيعون التبليغ عن سرقة الممنوعات التي كانت بحوزتهم، ومع ذلك لن نجازف، سنبقى بعيدا حتى يعاودنا الشعور بعودة الأمور لنصابها الأولي..
- وهو كذلك..
لكن الأمور لم تعد لطبيعتها، قد استشعرت ذلك..
ثمة ما أوحى إلي – وأظنه ذات الوحي الذي دفع (أوديب) لفقء عينيه- بأن ما قمنا به كان لا يعدو سرقة ممتلكات خاصة، حتى وإن كانت المسروقات من طراز الممنوعات إياها..
ومن ثم أعاود التفكير: هل ما صنعناه كان به قدر ولو ضئيل من الصواب؟ قد كان الأوغاد يشربون الخمرة ويطوحوا زجاجاتها بالقرب من المسجد، ومن ثم يلعبون الورق، ولربما يقامرون كذلك، كل هذا وشاشة تلفازهم تعرض مشاهد إباحية حتى مطلع الفجر! لكننا قمنا بما قمنا به طلبا للمغامرة فقط، وهنا تكمن المشكلة!
أتراهم أبلغوا الشرطة؟ المنطق يؤكد صعوبة حصول ذلك، فلِمَ القلق بهذا الشكل؟
سبق وأن حضروا ولم يتمكنوا من صنع شيء، نحن لم نسمح لهم بصنع شيء..
و(سكبو) يقول لي:
- تشجع واصبر، مؤكد أن الأمور ستعود لطبيعتها الأولية!

الفصل التاسع

أثناء أيام الانتظار المثيرة للضجر والاسترخاء، أهداني (سكبو) هدية سعدت بها كثيرا، كانت عبارة عن جهاز « فيديو» ومن نوعية ممتازة!

- «وما المناسبة؟»

- «عمتي استغنت عنه، ونحن لسنا بحاجته لأن الدار ملأى من تلكم الإلكترونيات، ففكرت في صديق عزيز لا يملك واحدا!»

لقد أتاح لي الجهاز العجيب – في تلك الأيام- مشاهدة الأفلام التي كنت أسمع عنها من رفاقي فحسب، فصارت بذلك فترات السهرة غاية في الإمتاع، أجلب خلالها فيلم رعب أو إثارة، بدل الدعاء والابتهال والتسمر أمام المذيعة كي لا تنطق باسم فيلم مثير للغثيان، أو تقطع برنامج السهرة للانتقال إلى مناسبة معينة..

الليلة تحررت من ذلك كله، وبتُ مسؤولا عما أود مشاهدته!

ورغم ذلك شعرت بكل الاشتياق للإثارة الحقيقية، مغامرات منتصف الليل التي تجمد الدماء في العروق..

ومع مرور الأيام شعرنا بأن الأمور لن تكون أفضل مما هي عليه الآن، ورغم ذلك آثرنا الانتظار..

وبعد أسابيع أحسسنا أن كل شيء هادئ بصورة مشجعة، لكننا فضلنا مزيدا من الانتظار..

عقب أسبوع آخر خرجنا في ليلة باردة معتمة، وقد قررنا العبث في المدرسة قليلا، ليس بقصد التخريب بل للهو فحسب، كممارسة التسلق والوثب والمطاردات، ومضايقة الحارس كي يخرج في أعقابنا!

كان الرجل بدويا صميما، ممن يفطرون بتيس ويتعشون بجمل! وقد حاورناه نهارًا عن «الخطر الأسود» ، فضحك قائلا بصوت غليظ:

- ولو كان العفريت الأزرق بذاته! دعه يأتِ إلى هنا فقط كي أريكما كيف أهشم رأسه بعصاي هذه..

الطريف بأن أحدا لم يكتشف بعد أن «الخطر الأسود» عبارة عن شخصين! فقررنا زيارة الحارس الليلة ونحن نلبس ذات الثياب، وصنعت لسكبو قناعا مشابها للذي أرتديه، والنية كانت مداعبة الحارس بطريقة تجعل شعر رأسه ينتصب كأنما مسته كهرباء، ليعتقد بعدها أن «الخطر الأسود» ما هو إلا عفريت بالفعل!

لكنه خيب آمالنا كونه حارسا غير يقظ، فقد غط في نوم يعجز زلزال عن إيقاظه منه، رغم طرقنا بابه بأكبر صخب ممكن، طبيعي مع صنوف الدهون الراقدة في أمعائه..

تسللنا لداخل المدرسة باطمئنان تام، وحين حاولنا ولوج الفصول لكتابة بعض التهديدات الزائفة وجدناها موصدة بالكامل، فقال لي (سكبو) بوجه متجهم متوجها نحو الحمامات:

- دعني أقض حاجتي ومن ثم نغادر المكان المقبض..

لكنه لم يلبث أن عاد قائلا بفتور:

- حتى أبواب الحمامات موصدة، ما الذي سنحاول سرقته من هناك؟

- ربما صنعوا ذلك عقب استيلائنا على السلاسل المعدنية المستخدمة في شد مقابض «السيفون»!

وكنا قد أخذناها لاستخدامها في المشاجرات، فتبسم (سكبو) ولم يعلق..

خرجنا وشعور الملل ينتابنا، لم أعتقد بتواجد إثارة من أي نوع في تلك الليلة..

- «أشعر بعطش شديد..»

قلت لسكبو **(فيما بعد تمنيت لو عاد بنا الزمن للوراء كي أقول له: «يستحسن أن تشرب في داركم!»)** :

- ثمة براد للمياه في المسجد القريب.. **(وهو المسجد المجاور لمنزل الشبان العزاب إن لم تخمن ذلك!)**

ذهبنا إلى هناك وقد انتزع كل منا قناعه ليضعه في جيبه كي نتمكن من الشرب..

****

كان القدر قد حضر لنا مكيدة وضعت حدا لكل ما كنا نقوم به من لهو وعبث، فبينما كنتُ عاكفا على الشرب فوجئت بسكبو وقد أطلق ساقيه للريح!

وقبل فهم الأمر فوجئتُ بذراعين تطوقان خاصرتي كالفخ الفولاذي، وسمعت صوتا ثائرًا كاد بأن يثقب طبلة أذني:

- لا تفلته يا (جاسم)، سأذهب للنيل من «الحيوان» الآخر!

صحتُ غير فاهم – أو متظاهرا بعدم الفهم-:

- ماذا هناك؟!

- اخرس!

كان ضخما، والإفلات منه شبه مستحيل، لم أتمكن من مجرد التفكير في الإفلات منه، لأن الآخر عاد على الفور ليجذبني من ثيابي صائحا:

- لماذا فرَّ صديقك كالدجاجة؟

- ربما أفزعه منظرك..

- أتمزح أيها الحيوان؟

- توقف عن شتمي وأطلق سراحي، ماذا تريد مني؟

- أريد رؤيتك متعفنا في السجن يا لص يا مخرب!
- أتمسك بأي شخص يسير في الشارع لتنعته باللصوصية؟
- الويل لك! صبرا حتى يحضر رجال الشرطة..
شعرت بكفي اليسرى تختلج، ومن ثم شرعت تهتز هزا عنيفا حملته حتى يومنا هذا..
قلت لهما مبتلعا ريقي الذي جفَّ سريعا رغم ما بلله من ماء:
- لماذا تتهماني بالسرقة على هذا النحو الفج؟
- وأنت لماذا سرقتنا؟
- وما الذي سرقته بالضبط؟
- أشياء، أنت تعرفها يا..!
كالخمرة والأفلام الإباحية؟
ورغم ذلك قاما بإبلاغ الشرطة! استعمل أحدهما هاتفه النقال ليسألهم الحضور العاجل..
- «خمن من في قبضتنا، «الخطر الأسود» شخصيا!»
وهو شرف أفضل الموت على حمله في تلك اللحظات الكالحة الحالكة!
أشعل أحدهما سيجارته بانتشاء، في حين سألني الآخر متبسما بمودة مصطنعة:
- لِمَ صنعت ذلك يا بني؟ لِمَ تدمر مستقبلك بيدك؟
- اصمت لحين مقدم الشرطة..
- وهو كذلك..
تحدث مع رفيقه بأمور لا تعنيني، تخللتها ملاحظات عن (سكبو) الذي هرب، وعن عقابي الذي من المرجح أن يكون الجلد مع السجن المؤبد.. يظنان بأنهما يسخران مني!
عقب ربع ساعة من اتصاله حضرت سيارة رمادية أو بيضاء اللون – لا

أذكر تماما– لتتوقف أمامنا، هبط منها ثلاثة رجال شديدو البأس، أحدهم يبتسم باستهزاء يثير الاستفزاز حقا..

- «أهذا هو الخطر الأسود الذي أجهد الجميع؟ لقد سقط أخيرًا كأي مغفل!»

لم أستطع كبح جماح غيظي، فصحت قائلا :

- يا ناس، أنا لست لصا، كيف تمسكون بي وأنا أشرب لتتهمونني باللصوصية؟

اقترب المستهزئ ليقول لي بمكر:

- أحقا لا تعرف؟

- لا..

ثم اقترب الثاني، كان بلحية كثة وجسد ممتلئ، وبوجه متبرم تكلم:

- ما الذي تفعله في الثانية من بعد منتصف الليل يا ولد؟

- كنت أتمشى مع صاحبي..

- وأين صاحبك؟

أجابه الضخم ملقيا بعقب سيجارة كان قد فرغ منها:

- الحيوان الآخر فرَّ كالدجاجة، لماذا كان يرتدي زيا كزيك؟

- كنا نلعب مباراة في النادي، وعقب المباراة بقينا نتسكع..

- حتى هذا الوقت المتأخر؟

- نحن شباب ونعشق السهر..

عاود صاحب اللحية سؤالي بغلظة:

- أين منزل صاحبك؟

- لا أعرف، فقد تعرفت عليه حديثا..

- ما اسمه؟

- (سالم)..

- (سالم) ماذا؟

- لا أعلم..

- لماذا كتبت على الجدار ذلك التهديد الأجوف؟

- أي جدار وأي طلاء؟ أنا لم أفعل شيئا..

هوت يده على وجهي بصفعة مباغتة أفقدتني صوابي تماما، فلففت السلسلة المعدنية للسيفون – والتي كانت في جيبي- حول قبضتي، وحين جذبني لأقف في مواجهته باغته بلكمتي التي جرحت له خده بعمق!

- «أيها الحيوان!»

كاد أن يفتك بي لولا أن أوقفه الثالث – وكان طوال الوقت يدخن سيجارة حتى فرغ منها- ثم اقترب مني ببطء، وسلط نظراته المتفحصة على هندامي.. كان أكبرهم سنا، ولربما الأكثر خبرة، سألني برفق (إنهم يتسلون عليّ بلعب أدوار المحترفين) :

- من أين أتيت بالطلاء؟

- عن أي طلاء تتحدث؟

- عن الذي يملأ ثيابك..

آخخخ!

فوجئت بآثار الطلاء المقصود على ثيابي – يا لي من أحمق غبي!-، ورغم ذلك تماسكت وتماديت في الكذب:

- نجم عن العبث داخل مستودع والدي، لدينا الكثير من الطلاء هنالك..

ابتسم الرجل بتهكم قائلا:

- موقفك صعب يا بني، فلا تزده على نفسك وعلينا..

أتريد أن نوقظ أهلك لسؤالهم عنك؟ ومن ثم نسحبك أمامهم إلى المخفر؟ أهذا ما تريده؟

سهِّل الأمور على نفسك وعلينا وعلى أهلك أيضا، إذا اعترفت الآن بسطت المشكلة أكثر – وهي بالمناسبة عويصة للغاية–، والآن أذكر السؤال للمرة الأولى والأخيرة، وحاذر من الإجابة الخاطئة لأنها ستكلفك غاليا.. هل أنت

«الخطر الأسود» ؟
أردت البكاء، أردته بشدة، فقد انهار كل شيء بغمضة عين للأسف..
- أجل.. أنا هو!
وتماسكت كي لا أنتحب أمامهم، فتبسم الرجل الخبير قائلا باسترخاء:
- أحسنت..
في حين اخرج صاحب الوجه المتبرم واللحية – وكان لا يزال غاضبا من لكمتي على خده- جهاز لاسلكي ليؤكد نبأ اعتقال «الخطر الأسود» ، لم أكن أعلم بأنهم يولون الموضوع كل ذلك الاهتمام..
لم أكن أعلم..
ركبنا جميعا السيارة قبل انطلاقتها بنا مسرعة، وبداخلها انهالت الأسئلة عليّ:
- «أكنت وصاحبك الوحيدان أم هنالك آخرون؟»
- «فقط أنا وهو..»
- «هل تعلم أن وزير الداخلية نفسه مهتم بالأمر؟»
- «ليس إلى هذا الحد..»
- «بل وأكثر من هذا الحد، لقد توعد بجلدك أمام الناس!»
- «ممتاز..»
- «أتظننا نمازحك؟ صعلوك مثلك كان لابد وأن يسقط في قبضتنا عاجلا أم آجلا..»
وتكلم كبيرهم قائلا بجدية:
- هل تعلم أن الشاب الذي قبض عليك كان يجلس على سطح المنزل للمراقبة وبحوزته سلاح رشاش؟
أتعلم بأنه كاد يطلق النار عليك وعلى صاحبك حين أبصركما تقتربان من داره؟
- لا يحق له فعلها..
- ولماذا يا بني؟
- ماذا لو كان مخطئا؟ ثم أننا كنا نشرب فحسب..

لو أنه قتلنا لتوجب عليه دفع ديتنا ورجله فوق رقبته!
- حين يكون في وضعية دفاع عن منزله لن يتوجب عليه دفع شيء البتة!
كان الرجل يحاول السخرية مني، ولم أكن بمزاج صالح لمجادلته..
قلت متنهدا وجبهتي مسندة على زجاج النافذة:
- أنتم يا رجال الشرطة أعلم!
إن الصدفة هي ما جعلني أسقط في قبضتهم، ترى كيف ستكون ردة فعل أهلي لدى سماعهم نبأ اعتقالي؟
وصلنا مركز الشرطة، فاقتادوني للداخل بخشونة زائدة، كان المستهزئ يكثر من شتمي حتى جعل أغلى أمنياتي في حشر قدمي داخل حلقه، أما المتبرم صاحب اللحية فقد كان يتحسس خده طيلة الوقت كأنه ينبهني إلى أنه كالجمل، لم ولن يغفل صنيعتي بوجهه..
خاطبني الكبير بودٍ ظاهري بسؤاله:
- أتود النوم في الزنزانة أم على الأريكة؟
- كلاهما سيان..
- خذه يا (خميس) إلى (جمعة)..
وللأسف كان (خميس) هو من قمت بلكمه، فسحبني من شعري بلؤم كما لو كان يقتاد أضحية إلى المسلخ..
وكان القصاب عريفا بدينا كهلا، قال له (خميس) وهو يتأملني بحقد:
- خذ هذا الحيوان وأودعه القفص..
أخذني (جمعة) إلى مكتبه، فسجَّل اسمي وتناول مني متعلقاتي، ساعتي والقناع وسلسلة «السيفون»!
وضع القناع على وجهه قائلا مداعبا:
- تخيف به الصبية النيام؟
وقهقه لأنه مغفل، ثم اقتادني إلى بوابة الزنزانة الصدئة، ففتح قفلها بمفتاح

صدئ كذلك، ثم دفعني إلى العتمة بالداخل هاتفا بقسوة:
- مع زمرة البهائم!
لم أرهم بادئ الأمر، ثم تبينت ملامح خمسة سجناء، اثنين من عمري، والثلاثة الباقين أكبر مني بقليل..
تقدم مني عنترة السجن، بدت عليه سمة من يستلم زمام الأمور هنا.. صافحني صائحا بلا مبرر:
- كيف الحال يا صاح؟
نظرت إليه بفكر مشوش، ثم همست محاولا استجماع قواي الخائرة:
- أريد الجلوس..
لم يكن ممن يهتمون بإحداث مشاغبات ومشاحنات لحسن الحظ، إذ أشار إلى البساط القديم بأريحية..
ذهبت وجلست معطيا ظهري للجدار، فقال لي فتى نحيل غزير الشعر وهو يقدم لي كأس صفيح:
- أترغب ببعض الشاي؟ إنه جيد..
- أرغب بالنوم..
- سارق أم قاتل؟ ربما مغتصب؟ فتيات أم فتية؟
قلت متمنيا إصابته بالخرس:
- دعني أنام..
وصاح عنترة السجن بقسوة:
- دعه للنوم يا همجي، غدا نسمع منه الأخبار..
نم يا صاح والصباح رباح..
ولكن هل يجيء النوم ليريحني من شتى الأفكار التي هزت رأسي بلا هوادة؟

الفصل العاشر

حين استيقظت لم أصدق أني قد نمت..

شعرت بنطفة تحسن، وحين تلفت حولي وجدت السجناء يلعبون بقطعة من النرد ذات شكل غريب، على قطعة من القماش وببعض قشور اللب.. واحد منهم فقط كان يغط بنوم عميق، تذكرت أنه كان نائما مذ ولجت الزنزانة أول مرة..

- «صباح الحلاوة والبقلاوة.. تلعب معنا؟»

- «لا شكرا..»

لوح الزعيم بقطعة النرد كبيرة الحجم قائلا وهو يضحك بمكر:

- صنعتها من الصابون، لو رآها الحارس فسيصادرها.. اتفقنا؟

- اتفقنا..

سمعنا صوت الباب الحديدي يفتح، فولجت أشعة الشمس الحارقة لتغزو مسامات جلدي ووجهي بلا رحمة، شعرت بها كغزو من قبل مستعمرة دبابير لاسعة..

دخل رجل متقدم بالسن نوعا، يبدو مستأنسا مقارنة بزملائه الذين تشرفت بمعرفتهم مسبقا، كان يحمل دلوا وبضعة أطباق من الصفيح، فناول كل واحد منا طبقا بداخله طعام لزج لونه برتقالي وبني بآن واحد.. بلهجة بدوية عتيدة صاح الرجل بنا:

- هلموا إلى العدس الشهي!

لم أكن ممن يفطرون، ناهيك عن الحالة النفسية المقبضة التي وصلت إليها، أما عن الفتية فقد كانوا جوعى حقا، فقررت مشاركتهم عملية ملء الأطباق فحسب مقررا عدم الأكل..

طلب أحدهم إذنا للدخول إلى الحمام، فأشار له الحارس بالخروج، وكنت بحاجة لذلك الإذن كذلك..

- «أريد دخول الحمام..»

- «بل قل : أطلب الإذن لدخول الحمام..»

- «أطلب الإذن لدخول الحمام..»

- «وتطلبه لدى عودة زميلك الذي خرج..»

قاعدة دخول الحمام الخاصة بالتلميذ والمعلم مطبقة هنا إذاً..

وحين عاد السجين عاودت المطالبة بالإذن، فأشار لي الحارس بالخروج أخيرا..

كان المكان عبارة عن ساحة يخرج إليها السجناء عقب صلاة العصر للفسحة كما تبين لي لاحقا، ويؤدي الباب المجاور لبوابة الزنزانة المعدنية إلى حمام شاهدت في التلفاز حظيرة خنازير أنظف منه..

حبست أنفاسي أثناء تحرير مخزون المثانة الملآن عن آخره، ثم خرجت لاهثا وشاعرا أنني لبثت لأمد طويل أسفل مياه مستنقع نتن، حتى كدت أختنق بداخله..

****

عدت لأجد بجوار طبقي كأس صفيح ممتلئ بالشاي الساخن – لا بأس بالشاي–، وعقب خروج الحارس بعدما رمقنا بنظرات تفيض ريبة، وسمعنا صوت الإقفال المقبض للبوابة، تمدد «الريِّس» بجواري قائلا:

- لا تحب العدس كما يبدو، إذاً سألتهم طبقك..

وشرع بالأكل لأن شهيته المفتوحة جعلته يفرغ من طبقه في ثوان..

قال وهو يبتلع الأكل ابتلاعا في الواقع:

- محسوبك (سلمان)..

- (رَمَّاح).. منذ متى وأنت هنا؟

- احزر..

- سنة؟

- ثلاث سنوات (يضحك) ولم يبدؤوا بمحاكمتي بعد!

كان ذلك جديدا عليّ في تلك الأيام، لذا استغربت وبشدة، استغربت وصول العبث لدرجة اللهو بحرية امرئ حتى ولو كان.. حتى ولو كان..

- «ما الذي ارتكبته من جرم؟»

- «احزر!»

- «سرقة ربما؟»

ضحك ملء فمه صائحا:

- وليست أية سرقة! سرقة لو أنها نجحت لصار الجالس بجوارك ملياديرًا! لقد تسللت لفيلا من فلل (يخفض صوته)..... شخصيا!

- حقا؟!

- كنت أعمل في الفيلا كمستخدم في الواقع، وذات ليلة قررت السطو على محتويات الخزينة التي بداخل حجرة مكتبه، لم يكن يعلم أنني في كل مرة يفتح فيها الخزينة كنت أتظاهر بترتيب أوراقه وأنا أقوم بحفظ الأرقام السرية، إن مسؤولنا مهمل ، وقد ظن عقلي بحجم حبة الفول..

خمّن كم المبلغ الذي وجدته داخل تلك الخزينة..؟

- لنقل مليون؟

ضحك مجددا ضحكته الشبيهة بضحكة الضبع ، ثم صاح:

- بحق الله! وجدت داخلها مليارا! مليار دولار!

فكرت بإخباره أن استيعاب خزينة لمثل ذلك المبلغ الهائل أمر مبالغ به، ثم آثرت الصمت..

وعاود ضحكه المثير للضحك، ثم هدأ ليسترسل متنهدا:

- كنت سأودع الفقر للأبد لولا يقظة حراس الأمن لدى المسؤول.. ألا تبا لهم!

ونظر من حوله، فأشار أول ما أشار للفتى مشعر الوجه والساعدين:

- (مهند) حاول سرقة متجر للأجهزة الإلكترونية..

و(جاسم) تحرش بقاصر كانت..

صاح المدعو (جاسم) وهو ينثر من يده قشور اللب:

- هي التي تحرشت بي! وحين باغتنا شقيقها البكر صارت تصرخ كالممسوسين!

أشار (سلمان) إلى مديد قامة مؤهل للعب كرة السلة:

- (مسعود) قتل صبيا في حادثة دهس، إنه سائق متهور!

- والصبي كان في عرض الشارع..

قالها وشرع يرتجف كأنه يراه الآن، فشعرت بالإشفاق عليه رغم فظاعة جرمه..

رمقت الفتى الذي لا زال نائما بنظراتي المتسائلة، فتكفل (سلمان) بالإجابة:

- هذا (جابر)..

- وماذا صنع؟

- (جابر)؟ قل: ما الذي لم يصنعه يا صاح! سرق وقتل واغتصب وأدمن المخدرات والمسكرات.. إنه لمصيبة غافية!

نظرت إلى الحمل الوديع غير مصدق، كان نحيلا منكوش الشعر، ينام وفمه مفتوح، فأغرق البساط بلعابه..

بدا أبلها للغاية، مسكينا أبله لحد لا يمكن وصفه!

سألني (جاسم) مهتما:

- ماذا عنك يا صاح؟ ما الذي ارتكبته بحق مجتمعنا؟

أسندت ظهري إلى الجدار، ثم أتبعته برأسي، ومن ثم تنهدت..

قلت وبصري معلق بالسقف مقشور الطلاء:

- مجرد أعمال تخريب..

- فقط؟!

لم أكترث لحديث (سلمان)، شعرت في تلك اللحظة بكراهية جنونية لحياتي، لروحي الحمقاء المحركة لهذا الجسد الأحمق الذي قلما تظهر فائدته، ومصائبه بازدياد دائم.. ليته يفنى فقط!

إنه جرح لن يندمل ما حييت، من المفترض أن أكون الآن في المدرسة، حيث أحاول الإجابة على سؤال أحد أساتذتي في الصف، أو ألتهم الطعام في الفرصة.. ترى كم الساعة الآن؟!

الفصل الحادي عشر

فتح باب الزنزانة بغتة، ودفع للداخل – قذف قذفا في الواقع- شخص نسيت أمره في غمار المستجدات التي طرأت في وقع الأحداث على رأسي!

تبسمتُ مندهشا رغم أن ظهوره كان متوقعا، فقد اعترفت لهم باسمه داخل سيارة الشرطة لأنهم هددوني بأشياء مشينة، ومع ذلك كرهت الظهور كواش فشل في الصمود، فتظاهرت بالاستغراب لوجوده هنا، وصحت بتلهف وأنا أخف صوبه:

- (سكبو)؟ كيف قبضوا عليك بحق الله؟!

كان ينافسني على عرش ملك السذج، إذ أجاب بحزن:

- الله أعلم! لقد سحبوني من المدرسة سحبا..

جلست وجلس بجواري، وسألني واجما:

- ضربوك؟

أجبته وأنا أشد وجوما:

- قليلا..

- ضربوني في السيارة، وقالوا كلمات بذيئة لا تصدق عليّ وعلى أهلي..

- القول شيء والفعل شيء، دع أحدهم يقترب بكلماته البذيئة لأنثر جسده نثرا في الهواء!

كنت فخورا لتمكني من لكم أحدهم، كما أن الغضب يولد الكلمات المناسبة..

سألته:
- أصحيح أن وزير الداخلية شخصيا مهتم بالأمر؟
- كرروها مرارا، إن سمعتنا قد باتت سيئة يا صاحبي!
حشر (سلمان) أنفه في الموضوع صائحا:
- وزير الداخلية مهتم بأعمال تخريبية؟ أكنتما تخربان عمارات؟
سلط (سكبو) بنظرات شذرة عليه، ومن ثم صاح:
- ما بالك يا هذا؟ ألا تقرأ الجرائد؟ أنا وهو نترأس تنظيم «الخطر الأسود»!
- أنتما؟ أنتما «الخطر الأسود» ؟!
وانفجروا جميعا ضاحكين، فهمست لسكبو:
- يبدو أن الأنباء تبلغ السجن حتى بدون جرائد!
- أظن شتى صنوف العصابات الإجرامية تحاول الآن تدبير لقاءات معنا للتفاوض في صفقات العمل، لقد حققنا الشهرة في الوسط الإجرامي على الأقل!
دنا (مسعود) صاحب القامة المديدة قائلا بأسلوب الترهيب:
- إذا كنتما «الخطر الأسود» حقا فأنتما - على الأقل - تعلمان شعاره الشهير!
وضع (سكبو) سبابته أرضا ليدورها، ثم رسم بداخل الدائرة علامة إكس، فظهر الذهول قبل الانبهار على وجوههم، وبالذات الفتى الضبع – أقصد (سلمان)- إذ قال متسمرا:

- هما «الخطر الأسود» فعلا!
لم يكن الدليل الذي قدمناه كاف لإقناع طفل، لكنك لا تدرك مدى حدود التفكير التي بلغتها عقول أولئك الفتية السجناء، ربما بسبب ما ارتكبوه من جرائم، أو لطول المدة التي قضوها هنا..
فتح باب المفاجآت مجددا، وظهر الحارس ليصيح مشيرا إليّ:
- أنت..
- أنا؟

- انهض يا فتى ولا تكتفِ بالإجابة!
إفراج؟ لا، لا يزال حلما عزيز المنال للأسف..
بالخارج وقف بانتظاري رجل كان من المفترض أن يكون معنا في الزنزانة، الندبة التي شطرت وجهه لشطرين تقر بأنه كان مجرما ومن ثم صار مخبرا، من الزبانية إذا صح التعبير..
- «أنت الخطر الأسود ؟»
هززت رأسي أن نعم، فاكتفى بجري من شعري بقسوة..
- «هلم يا مخرب!»
واقتادني إلى مكتب رجل أسود ضخم ومفزع، بعدها انصرف ويا ليته بقى برفقتي!
من المفترض أن الرجل محقق، بدا ممن يسمعون بالرحمة ولا يدركون معناها، ضخامته غير عادلة، لأنه إذا ما غضب فلن أتمكن من حماية نفسي منه..
كان يحشو غليونه الخشبي البراق والأنيق بالتبغ، وفجأة سألني:
- أنت هو؟
- أجل..
- لم أسألك بعد..
- أرجو المعذرة..
- المعروف بـ «الخطر الأسود»..
- أجل..
إن بلبلة أعصابي تكاد تجعلني أتقيأ، وتركيزي في تلك اللحظات الهامة مشتت..
- «لِمَ فعلت ذلك؟»
- «فعلت ماذا؟»

قلبت أصابع يده ملفا وهو يقول:
- المعلومات التي لدي تقول بأن حياتك ممتازة، والدك رجل يعرفه الجميع ويقدره، فلِمَ تحاول جلب العار إليه؟ أ لأنه يهملك وترغب في جذب انتباهه نحوك؟
أتراه الفراغ المقبض؟ أحيانا يصنع الشبان أفاعيلهم الطائشة باسمه، ورأيي الخاص أنهم جبناء وحمقى في تلك اللحظات المتطلبة نضجا أكبر من قبلهم، فهم يهربون من مشاكلهم التي تستوجب الرجولة لمجابهتها وحلها ليلجؤوا إلى المخدرات أو السرقة، وربما لعبادة إبليس!
أما عنا نحن فقدرنا إصلاح ما يفسدونه دوما بلهوهم المنحط، كان الله بعوننا.. أين «الفيديو»؟
- ماذا؟
- «الفيديو»، أين هو؟
- أي «فيديو»؟
- الجهاز الذي سرقته مع صاحبك من منزل العزاب، ألم يكن جهاز «فيديو»؟
- أنا لم..
فجأة تذكرت هدية (سكبو) اللعينة، تلك التي قدمها لي منتحلا صفة الودود.. الوغد! لابد وأنه عاد من وراء ظهري لسرقته!
وعقب انتهاء التحقيق المقيت، بدوت كإنسان آلي يسير عن طريق جهاز للتحكم عن بعد، فما إن وجدت نفسي داخل الزنزانة مجددا حتى قمت بتسليط نظرات الاتهام المريرة صوب (سكبو) الذي نهض متسائلا:
- عم سألوك بالضبط؟
- عن هديتك اللعينة، عن «الفيديو» اللعين الذي استغنت عنه عمتك!
قمت بالانقضاض عليه فصدمته بالجدار في عنف، والغريب أن السجناء لم يجن جنونهم، أو تتبدى نوازع الإثارة التي نسوها منذ زمن على وجوههم،

بل صاروا يباعدون بيني وبين (سكبو)!

- «اخزوا الشيطان يا جماعة.. اخزوه!»

كنت أصرخ في وجه (سكبو) كالوحش المهتاج:

- كيف صنعت بي ذلك أيها الحقير؟ حولتني إلى لص وضيع بحقارتك!!

وأنا كيف لم أتنبه إلى أنه ذات الجهاز الذي كان موجودا بداخل منزل العزاب؟ كانت نظرتي له عابرة، كما أن سعادتي به قد طغت على تفكيري، كان يتوجب علي التفكير على الأقل: لماذا يهديني (سكبو) هدية لعينة كتلك وفي ذلك الوقت بالذات؟

- «كان نوعا من العقاب الذي أنزلناه عليهم، أليس ذلك أفضل من بيعه وتقاسم ثمنه؟»

- «بل كانت سرقة، أنت حولتنا برعونتك إلى لصوص!»

فتح باب الزنزانة ليدلف الحارس شبه المسن صائحا بلهجته البدوية الشديدة:

- ابتعد أنت وهو عن بعضكما الآن!

ثمة «كاميرا» مغبرة وضعت في إحدى زوايا سقف الزنزانة لرصد المساجين ومشاغباتهم، فلم نستغرب ولوجه المفاجئ علينا..

ابتعدت عن (سكبو) إذعانا لأوامره وهو يعاود الصياح بهيجان:

- إياكما ومحاولة الشجار هنا مجددا، وإلا أذقتكما نكهة الحبس الانفرادي.. وأنت يا (سلمان)، ناولني الشيء الذي كنت تلهو به مع رفاقك!

ببراءة تساءل الفتى:

- شيء؟ أي شيء؟ كنا نلهو ببعض قشور اللب فحسب!

- هكذا إذاً! سأعلم ما هو، وعندئذ سآخذه وألق بك في الانفرادي! وأنتما.. الويل لكما إن عاودتما الشجار!

وخرج دون أن يعلم أنه لن يكون هنالك بالفعل شجار آخر، فقد انتهت

علاقتي بك يا (سكبو) لأنك تلاعبت بي، وكل ما قلته لك في السابق هو آخر ما أحادثك به بعد اليوم..

****

خرجنا من السجن بكفالة فادحة، وعقب التوقيع على تعهد نقر به أننا لن نمارس ألاعيبنا الصبيانية مجددا..

كان الفراق عاديا داخل الزنزانة، دون معانقات أو ذرف دموع، فنحن لم نجالس السجناء لأعوام طوال، ويلوح لي أنهم لقوا وداعنا بشيء من الازدراء..

لم تأخذ (سكبو) العزة بالإثم، ففي الطريق لمنازلنا حاول الاعتذار مني مُبديا ندما عميقا.. آثرت الصمت، إن ما فعله بي لا يمكن أن يمحى بسهولة ويسر كما تصور..

الفصل الثاني عشر

عاود (الإدريسي) تقليب ملف (رَمَّاح) الأسود «لونا ومضمونا»، ثم قال متمعنا في حدقتي الفتى:

- ولدى انتهائك من امتحانات الثانوية العامة وظهور النتيجة هجركم والدك!

- أنت تعلم قصة حياتي إذاً ، فلِمَ طلبت مني سردها بحذافيرها؟

تجاهل (الإدريسي) تساؤله، وببرودة تمتم:

- أتعلم أين والدك الآن؟

- لا أعلم ولا أرغب بأن أعلم..

لكن نظراته قالت غير ذلك!

- «إنه الآن في العاصمة حيث أنشأ أسرة جديدة!»

ابتلع (رَمَّاح) ريقه قائلا بصوت متحشرج:

- هنيئا له!

- تزوج امرأة ميسورة الحال، سيدة أعمال في الواقع، ولهما طفلة جميلة للغاية! يعيشان في فيلا لا بأس بها، والرجل الهمام يدير شركات زوجه الحسناء بكفاءة تامة.. أسرة ناجحة وسعيدة لو أردت رأيي!

تنهد (رَمَّاح) كاتما مرارته بعسر..

كان رحيل والده مباغتا وصادما لأبعد الحدود، رحل هكذا ودون سابق إنذار.. هل بسبب مجموع (رَمَّاح) الضعيف الذي ناله في الثانوية؟ أم

بسبب المتاعب التي سببها له إثر التعويضات التي اضطر لدفعها بالدين كي لا يسجن ولده مدة طويلة خلف القضبان؟
أم تراه (وضاح) السبب؟ هل كره أخيرا فكرة تحمل أعباء الولد المعاق الذي لا فائدة ترجى منه؟
لربما كانت والدته السبب، فهي مريضة على الدوام!
ابن مخرب وآخر معاق وزوجة سقيمة على الدوام.. لقد ترك والده كل شيء كي يبدأ حياة جديدة خالية من الهموم إذاً! كان أمله أن يعود الوالد يوما بمفاجأة تنقذ الأسرة من مشاكلها المادية والمعنوية..
هرب الوالد إذاً .. فهنيئا له بزوجه الجديدة وابنته الجديدة!
غالب (رَمَّاح) قهره بمجهود جبار، لو أنه وحده لانتحب! لكنه لن يسمح بدمعة واحدة في مقلته أمام سحنة كسحنة (الإدريسي) الذابلة، إذ ستكون كالفضيحة..
لم يُبدِ (الإدريسي) تفهما أو تعاطفا وهو يقول بسماجة:
- والآن دعنا في المهم! لديك فرصة لا بأس بها لمحو ملفك الأسود هذا..
- لا تمحه.. دعه!
ابتسم (الإدريسي) لأول مرة مذ بدأ هذا التحقيق، وبثقة قال:
- المعاق أجل! لا داع لتذكيري كل دقيقة بهذا..
- وهو كذلك، هذا الملف لم يُضف إلى سجلك المدني بعد، والدليل هو إيجادك وظيفة كسائق سيارة أجرة، ولكن ليس لوقت طويل..
احمر وجه (رَمَّاح) من فرط الغيظ وهو يقول:
- هذه هي طريقة عملكم إذاً!
ردَّ (الإدريسي) بصرامة كاسحة:
- أجل، هذه هي طريقة عملنا!
والآن.. هل أنت مستعد للتعاون؟
رمقه (رَمَّاح) بنظرة طويلة وحانقة دون أن يرد..

كانت صور الشرائح الضوئية تتلاحق بكبسة زر من جهاز شبيه بالريموت كنترول في يد (الإدريسي)، وقد خرج من الجهاز سلك متصل بآلة العرض التي ألقت بضوئها على شاشة بيضاء عملاقة..

القاعة غارقة في الظلام ، و(رَمَّاح) جالس على كرسي خشبي غير مريح ، بانتظار ما سيقوله (الإدريسي) الواقف خلف آلة عرض الشرائح..

الصور المتلاحقة كلها تصور جامعة تعرضت للانفجار قبل حوالي أسبوع، (رَمَّاح) سمع بالحادثة المروعة رغم أنه لا يملك تلفازا، فقناة اتصاله الوحيدة بما يدور من حوله كانت مذياع سيارة الأجرة..

قال (الإدريسي) وهو يعرض صور الجامعة عقب الانفجار:

- لم ينج أحد من الطلبة أو الدكاترة من هذا التفجير المروع، حتى طلبة السكن التعساء جميعهم حضروا الحفل فكانت نهايتهم المؤلمة..

لم نعثر بعد على أي طرف خيط يقودنا لمخطط هذه العملية المروعة، لا مكالمات هاتفية ولا وثائق أو شهود، وعلى عكس تكهنات سابقة فإن القنابل التي استخدمت في هذه العملية جاءت من خليط مختلف من متفجرات مصنوعة محليا، وذلك يعني أنه إما أن يكون نفس «الكيميائي» قد صنع طبقتين مختلفتين، أو أن أكثر من كيميائي واحد قد ساهم في العمل!

- لم أفهم شيئا..

أتاه صوت (الإدريسي) أكثر حدة وهو يقول:

- أي أن التفجير كان من صنع هواة، طلبة جامعة على الأرجح قاموا بذلك في السكن أو المختبرات العلمية!

- تفسير غير مقنع! هذا الانفجار الهائل.. من صنع هواة؟

- لا زالت هذه نظرية، وعلى العموم.. ثمة ما يدعمها ولو قليلا..

وألقى بصورتين لرَمَّاح، فالتقطهما محدجا إياهما بنصف اهتمام..

الأولى كانت لشاب وسيم قمحي البشرة ناحل الوجنتين، أما الأخرى فلشاب

أكبر قليلا، شعره خفيف لحد الصلع المبكر وتقاسيمه عابسة..
- «(نادر مطر) و(طارق عكاز)، أمرهما مثير للاهتمام حقا، اختفيا عقب حادثة الانفجار مباشرة من سكن الطلاب، ولم يظهرا بتاتا لغاية الآن..
- قلت إن جميع طلبة السكن قد حضروا الحفل..
ابتسم (الإدريسي) لهذه المغالطة – أم أنه كان يختبر دقة ملاحظته؟- قائلا:
- ما عدا هذين..
- ثمة ألف سبب لكي..
- ربما بالنسبة للأول، صحيح أن والدته تؤكد ألا ولد لها لأنه انتحر قبل سنة من حادثة الانفجار! لكن الآخر مطلوب لجريمة قتل ارتكبها في حق طالبة في.. جامعة أخرى!
- معك حق، هذا مثير للاهتمام فعلا، ولكن ما دخلي بهذا كله؟ ماذا تريدون مني بالضبط؟
ترك (الإدريسي) الجهاز معلقا على صورة لبعض الجثث المحترقة، فأدرك أن وقت الملاعبة النفسية قد بدأ.. إذا تحدث (الإدريسي) عن الضحايا الأبرياء الذين قتلوا في عمر الزهور..
لكن الرجل ناوله رسالة قائلا:
- وصلنا هذا البريد الالكتروني قبل ثلاثة أيام..
نظر (رَمَّاح) للورقة المفرودة، جرى بصره على الأسطر بشيء من ترو:
«أنا شيفا.. مدمر الجامعات!
يا له من هدف جميل! والعالم سوف يتغير للأفضل حتما، سيتحول إلى مملكة.. يا للسخرية.. مملكة منبثقة من مملكة!»
قال (الإدريسي) بعبوس:
- إنها قريبة من كلمات (أوبنهايمر) المقتبسة عن كتاب الهندو لدى رؤيته تأثير القنبلة الذرية، لكن مع اختلاف هام..

- الجزء المتعلق بالجامعات!

- بالفعل يا غلام! كذلك الجزء المتعلق بالمملكة المنبثقة من مملكة..

- وما علاقة الممالك بالموضوع؟

- هنا يأتي دورك..

أخيرا تغيرت الصورة المشؤومة للجثث إلى مبنى رائع مترامي الأطراف كيوتوبيا الأحلام الوردية، حدائق وبحيرة اصطناعية ومبان أخرى ذات تصاميم إبداعية..

- «الجامعة الملكية، انتهى العمل بها عام 1997، واليوم تحولت إلى قبلة لكل طالب جامعي يود الظفر بشهادة محترمة..»

قال (رَمَّاح) ساخرا:

- إذا ما كانت جيوبه ملأى سلفا!

تجاهل (الإدريسي) هذه النقطة مردفا:

- مصدر إرسال هذه الرسالة والهدف التالي المرجح للتفجير، إذا كان كلام المرسل صحيحا فأولئك الأشخاص في خطر داهم منذ تاريخ إرسال الرسالة..

- يا للهول! لِمَ لا تقفلونها إذاً ؟

- طبعا هذا حل سخيف، اليوم نقفل الجامعة، وغدا المطار! وعندئذ تغرق البلد في فوضى مريعة بسبب رسائل أرسلها معتوه ما!

- معتوه جدي لأبعد الحدود!

- هذا صحيح، لكنها الجامعة الملكية، حيث يدرس أبناء المسؤولين الكبار والساسة ورجال الأعمال والوزراء..

عاود (رَمَّاح) سخريته لما قال:

- وهذا سبب أكبر لإقفالها بأسرع وقت!

- إقفالها عبارة عن سلسلة من المتاعب تنتهي - وبشكل سريع - بإعادة فتحها..

- ماذا تقترح إذاً ؟ هل تريدني أن..

خيل له فهم الخطة بأكملها في لمح البصر، فانطلقت عبر ثغره ضحكة مستهجنة قبيل تساؤله المستنكر:

- تريدني أن.. أن أنتسب للجامعة الملكية؟!

- دراسة كاملة ومدفوعة المصاريف حتى يوم التخرج، شرط أن تتعاون معنا في القبض على تنظيم المجانين، والأفضل قبل تفجير الجامعة بطلبتها ودكاترتها..

- وأنا معهم!

- هذا سبب أشد لدفعك إلى العمل بحماسة أكبر!

- بأن تضحوا بي! هذا طريف! هل نسيت أن الروح غالية يا بيك؟ هل نسيت والدتي المريضة وشقيقي «المعاق»؟ من لهما غيري في هذه الدنيا؟ ماذا سيصيبهما إن أصابني أي مكروه؟

عرض (الإدريسي) سيجارة على (رَمَّاح) ، لكنه رفضها هذه المرة، فأشعلها لنفسه مدمدما بشيء من خشونة:

- سيكونان في الحفظ والصون، أثناء مهمتك سنهتم بكل شيء كي لا يحتاجا أي شيء، سندفع الفواتير المتراكمة، وسنؤمن قوتها وقوت ولدها، بل وسنأخذها إلى أفضل مستشفى ليتم علاجها..

كان هذا ما ينشده (رَمَّاح) بالضبط، لكنه أظهر تمنعا عنيفا وهو يهتف بغلظة:

- كل هذا جميل، ولكن ما دليلكم على تنفيذ ذلك كله؟ أعني أنكم ستلازمون جانبكم من الاتفاق أثناء مهمتي الجامعية، ولكن إذا ما سقطتُ صريعا بسبب انفجار قنبلة.. من يضمن لي ألا تتخلون عن عائلتي؟!

الفصل الثالث عشر

«أهلا بكم في الجامعة الملكية..»

لافتة «نيون» فاخرة بكل المقاييس، مزدانة بالأضواء متباينة الألوان، ليس على طريقة الكرنفالات المبهرجة، بل على طريقة متحف راق أو مؤسسة أبحاث علمية مرموقة..

طلبة وطالبات من مختلف الجنسيات، أكثرهم من أبناء الطبقة العليا المرفهة، وكلهم أتوا بمفردهم من دون ذويهم وبسيارات رياضية كلها خرجت من المصانع هذه السنة، ثيابهم عبارة عن عروض أزياء حية ومتنقلة، هواتفهم النقالة لن تجد مثلها في الأسواق العادية..

ولكن ثمة أيضا طلبة من طبقات أخرى متوسطة أو فقيرة، تتبينهم من نوعية ثيابهم، هؤلاء وصلوا الجامعة الملكية ببذل مجهود مضاعف، فنالوا المنح الدراسية التي سمحت لهم بالانتساب لهذه الجامعة العملاقة بجدارة..

قبل انتسابه للجامعة بمنحة «خاصة»، عرج (رَمَّاح) على السيد (شديد) صاحب الغرفة التي استأجرها منه كي ينقده الأجرة المتأخرة + أربعة أعوام مقدما! فاشتد فضول الرجل لمعرفة طاقة القدر التي انفتحت مرة واحدة أمام خلقة الفتى المتقشفة! لكن الأخير كذب قائلا أنه وجد وظيفة أخرى أفضل بألف مرة من قيادة سيارة الأجرة..

لو علم الرجل أن هذا المال من صندوق أمن الدولة فكيف ستكون ردة

فعله يا ترى؟
بعدها، أعاد السيارة إلى صاحبها واستقال غير آسف، وعندما فعل شعر برحابة لا حدود لها في صدره.. كالطير الهارب من أسره!
ثم زار والدته وشقيقه كي يطمئن عليهما، فسألته والدته بصوتها المنهك الحبيب:
- كيف الجامعة يا بني؟
ردَّ عليها واجما:
- إن شاء الله تطالعين شهادتي الجامعية بفخر يا أماه!
ولكن ماذا يُسجل بحق الله؟ لقد نسي المذاكرة منذ زمن، عندما تنقطع عن الدراسة مدة غير هينة كي تحصل قوت يومك، وتعود إليها فجأة..
ربما الأدب الإنجليزي فهو الشائع هذه الأيام، كانت إنجليزيته جيدة، وحبه للأعمال الأدبية لا يوصف.. إذاً فهي مبتغاه!

*****

النوافير المتعددة تصنع أقواسا مائية متقنة، تنيرها من القاع كشافات ملونة أخرى.. هذا المكان باذخ بفداحة، إنه الرفاهية القصوى وكأنه مهرجان حافل بالفعاليات!
في الداخل لن تجد مكتبا للقبول والتسجيل، فالحجز عن طريق «الإنترنت»! لأن الإدارة لن تسمح لطلبتها وطالباتها – المهمين- بالوقوف كطوابير الجمعيات كي يسجلوا المواد ويتأخروا عن المحاضرات.. كل هذا انتهى في عصر التكنولوجيا والسرعة..
- «لناس وناس!»
قالها (رَمّاح) بتهكم مراقبا نشاط الطلبة في مغازلة الطالبات، وثرثرة الطالبات التي لا تكل على «الموبايلات»، خلية نحل حية! أعداد لا حصر

لها من الجيل الواعد الذي..

لكنه يختلف عنهم.. فهو آتٍ للبحث عن بعض المجرمين، صحيح أن (الإدريسي) قد منحه كلمة رجل لا خيار له سوى الوثوق بها، لكنه لن يثق برجل مباحث أمن الدولة، سيعمل على الإيقاع بالمجرم – إذا وجد-، ويظل على قيد الحياة رحمة بوالدته المسكينة وشقيقه التعس..

لربما تمكن من تحصيل شهادة أثناء ذلك كله.. لكن..

فليدع الأقدار بيد خالقها، وليسارع بالانضمام للركب الجامعي الواعد!

نهاية الجزء الأول

صدر للكاتب وائل رداد:

رواية: «سأعطيك الحلوى شرط أن تموت» عن شركة المطبوعات - لبنان

رواية: «مذكرات الجرذان الغريقة» عن دار ممدوح عدوان – سوريا

رواية: «سيمفونية وادي الظلال» عن سندباد للإعلام والنشر – مصر

رواية: «موت سريري» عن دار أكتب – مصر ط1 / منشورات ضفاف - لبنان ط2

رواية: «جنازة الملائكة» عن دار رواية – السعودية

ترجمات: «القصص المنسية» عن دار سما - الكويت



روايات:

«المصعد رقم7»ج1

«التابع الحارس»ج2

«الهائمون»ج3

«مندوب الشيطان»

«ملاك جهنمي»

«الزيبق»

عن دار بلاتينيوم بوك - الكويت

E Mail: waelnovel@gmail.com